المشرق

الحكومة الدستورية

ان الرابع والعشرين من شهر تموز سنة ١٩٠٨ الذي منح فيهِ جلالة السلطان رعاياه حكومة دستوريَّة على مثال الحكومات الاوربيَّة لجدير بان يُعدَّ من اهم تواريخ الامة العثمانية. فبعد ان كانت متربّثةً في مقامها لا تكاد ترى بينما الكل في سير حثيث. ثابتةً على تقاليدها القديمة لا تحب نسخ شيء منها بينما الكل في تغير وانقلاب. عزمت هي ايضاً على النهوض من مقرها ومباراة الدول الاوربية في سيرها واحوالها المدنيَّة والسياسيَّة. وقد تلقى الجميع من وطنيين واجانب في داخل البلاد وفي الخارج ولاسيما في الدوائر السياسية هذا الحادث الخطير بزيد الفرح والارتياح لانهم يتنسمون منهُ خيرًا عميمًا. ولنا الأمل ان الاحكام الجديدة اذا رسخت فيما بيننا. وطابقتها الاعمال بكل صدق وامانةٍ. واثبتت حقوق الباري عزَّ وجلَّ. رأس كل صلاح واصلِ كل تمدن حقيقي. مرعيةً من الكبير والصغير والرئيس والمرؤوس. ضمنت للوطن الامن والعدالة. وانعشت في النفوس روح النشاط والاقدام على المشروعات المفيدة. واعادت الثقة لذوي الثروة في اوربا فامدونا باموالهم وساعدونا على استثمار خيراتنا. واوقفت حركة المهاجرة المشؤومة التي حرمت بلادنا انشط اولادها. وسهَّلت على ذوي الامور حلَّ المشاكل السياسية التي طالما عكرت صفاء علاقاتنا مع الدول الاجنبيَّة الى غير ذلك من المنافع التي يطول شرحها الآن. وفَّق الله المساعي وحقَّق الاماني

ولما كان القانون الاساسي الذي وُضع سنة ١٨٧٦ ثم اوقف العمل بهِ حتى اواخر تموز المنصرم والخط الهمايوني الصادر في غرة هذا الشهر يُعتبران كقاعدة النظام الجديد احببنا نشرهما ليسهل على الكل مطالعتهما والرجوع اليهما عند الحاجة

القانون الاساسي

وزيري سمير المعالي مدحت باشا

ان التدنيات العارضة منذ ازمان على قوة دولتنا العلية قد نشأت من الانحراف عن الطرق المستقيمة في ادارة الامور الداخلية اكثر مما نشأ من العوامل الخارجية ومن ميل الاسباب الكافلة امنية التبعة من حكومتهم المتبوعة الى الانحطاط . فلذا كان والدي الماجد المرحوم عبد المجيد خان اعلن مقدمة للاصلاحات خط التنظيمات الذي منح فيه للعموم الامن على نفوسهم واموالهم واعراضهم وناموسهم كما يوافق احكام الشرع الشريف المقدسة . فما عشناه للان ضمن دائرة الامن . وما وُفقنا به اليوم بوضع واعلان هذا القانون الاساسي الذي هو ثمرة الآراء والافكار المتداولة بالحرية المستندة على تلك الامنية ما هو الا من جملة آثار تلك التنظيمات الخيرية . فلذلك اردد خاصة في هذا اليوم المسعود اسم المرحوم المشار اليه وموفقيته واصفة بعنوان محيي الدولة . ولا ريب بانه لو كان الاوان الذي تأسست فيه التنظيمات المذكورة موافقاً لاستعداد زماننا هذا والجائه لكان المرحوم المشار اليه إسس اذ ذاك احكام هذا القانون الاساسي الذي نشرناه الآن واجراه . ولكن جناب الحق علق حصول هذه النتيجة المسعودة الكافلة بالتمام سعادة حال ملتنا وعمرانها لعهد سلطنتنا . فنقدم بناء على هذه الدلالة لجناب الرب الكريم الحمد والشكر العظيم . على ان التغييرات التي وقعت بالطبع في احوال داخلية دولتنا العلية والتوسعات التي حصلت في مناسباتها الخارجية اوصلت عدم كفاءة شكل ادارة الحكومة لدرجة البداهة . ولما كان اقصى مقاصدنا الخيرية ازالة الاسباب المانعة للان الاستفادة الواجبة من ثروة ملكنا وملتنا الطبيعية ومن قابليتها الفطرية وتقدم صنوف التبعة في طرق الترقي بالتعاون والاتحاد اقتضى لاجل الوصول الى هذا القصد ان تتخذ الحكومة قاعدة سالمة ومنتظمة وهذا ايضاً يتوقف على تأمين هذه الفوائد وتقريرها بمعنى ان قوة الحكومة تحافظ على حقوقها المقبولة والمشروعة وعلى منع الحركات غير المشروعة اعني بها منع ومحو الحطينات وسوء الاستعمالات المتولدة من الحكم الاستبدادي الفردي او الافراد القلائل ليستفيد جميع الاقوام المركبة هيئتنا منهم

من نعمة الحرية والعدالة والمساواة بلا استثناء . ذلك حق ومنفعة جريان بالهيئة الاجتماعية الدينية . ولما كان ربط القوانين والمصالح العمومية بقاعدتي المشورة والمشروطية الشروعتين والثابت خيرهما مما تحتاج اليه هذه الاصول اوعزنا في خطنا الذي اذعنا به جلوسنا عن لزوم ترتيب مجلس عمومي . وبما ان القانون الاساسي الذي اقتضى تنظيمه في هذا المطلب قد ترتب بالمذاكرة في الجمعية المخصوصة التي تعينت مركبة من متحيزي الوزراء وصدور العلماء ومن سائر رجال ومأموري دولتنا العلية وجرى عليه التصديق في مجلس وكلائنا بعد امعان نظر التدقيق وكانت المواد المندرجة فيه انما هي متعلقة بحقوق الخلافة الاسلامية الكبرى والسلطنة العثمانية العظمى وحرية العثمانيين ومساواتهم وصلاحية الوكلاء والمأمورين ومسؤوليتهم وبما للمجلس العمومي من حق الوقوف وباستقلال المحاكم الكامل وبصحة الموازنة المالية وبالمحافظة على مركز الحقوق في ادارة الولايات واتخاذ اصول توسيع الأذونية وكان جميع ما ذكر مطابقًا لاحكام الشرع الشريف ولاحتياج الملك والملة وقابليتها في يومنا هذا وكانت اخص آمالنا في مطالب سعادة العامة وترقياتها مساعدة لهذا الفكر الخيري وموافقة له فاستنادًا على عون الله وامداد روحانية رسول الله قد قبلنا هذا القانون الاساسي وارسلنا به لطرفكم بعد ان صادقنا عليه فبادروا لاعلانه في جميع انحاء الممالك العثمانية واطرافها ليكون دستورًا للعمل الى ما شاء الله وباشروا باجراء احكامه منذ اليوم متخذين اسرع التدابير لتنظيم ما تقرر فيه وتسطر من النظامات والقوانين كما هو مطلوبنا القطعي ونسأل جناب الحق المتعال ان يجعل مساعي المجتهدين في سعادة حال مملكتنا وملتنا مظهرًا للتوفيق في كل الاعمال

في ٧ ذي الحجة سنة ١٢٩٣

﴿ في ممالك الدولة العثمانية ﴾

المادة ١ ان الدولة العثمانية تحتوي على الممالك والقطع الحاضرة وعلى الايالات الممتازة وجميعها جسم واحد لا يمكن تفريقه او تجزيئه بوقت من الاوقات او بسبب من الاسباب

٢ ان مدينة استانبول هي عاصمة الدولة العثمانية ومقرها وهذه المدينة غير معفاة او ممتازة عما سواها من جميع البلاد العثمانية

٣ ان السلطنة السنية العثمانية الحائزة على الخلافة الكبرى الاسلامية تكون لاكبر اولاد سلالة آل عثمان بحسب الاصول القديمة

٤ ان حضرة السلطان حسب الخلافة هو الحامي لدين الاسلام وهو مالك جميع التبعة العثمانية وسلطانها

٥ ان نفس ذات الحضرة السلطانية هي مقدسة وغير مسئولة

٦ ان حقوق حرية سلالة آل عثمان واموالهم واملاكهم الذاتية وتخصيصاتهم المالية ما دامت الحياة جميعها تحت التكافل العمومي

٧ ان عزل الوكلاء ونصبهم وتوجيه المناصب والرتب واعطاء النياشين وتوجيهات الايالات الممتازة توفيقاً لشروط امتيازهم وضرب المسكوكات وذكر اسمه في الخطب وعقد المعاهدات مع الدول الاجنبيّة واعلان الحرب والصلح والترأس على القوة البحرية والبرية واجراء الحركات العسكرية والاحكام الشرعية والقانونية وتنظيم النظامات المتعلقة بمعاملات دوائر الادارة وتخفيف المجازاة القانونية او العفو عنها وعقد المجلس العمومي او فضه وتعطيله وفسخ هيئة المبعوثين لدى الاقتضاء على شروط انتخاب الاعضاء مجدداً ذلك جميعه من حقوق الحضرة السلطانية المقدسة

﴿ في حقوق تبعة الدولة العثمانية العمومية ﴾

٨ يطلق اسم عثماني بدون استثناء على كافة افراد التبعة العثمانية من اي دين ومذهب كانوا وهذه الصفة العثمانية تضاع او تستحصل على مقتضى الاحوال المعينة قانونياً

٩ العثمانيون باجمعهم يملكون حريتهم الشخصية ومكلفون بان لا يتعدوا على حقوق حرية الآخرين

١٠ تصان الحرية الشخصية من كافة انواع التعرض ولا يجازى احد تحت اي حجة كانت خارجاً عن الصور والاسباب المعينة في القانون

١١ ان دين الدولة العثمانية هو دين الاسلام فمع المحافظة على هذا الاساس تكون حرية جميع الاديان المعروفة في الممالك العثمانية وكافة الامتيازات الممنوحة الى الجماعات المختلفة تحت حماية الدولة على شرط ان لا تخل براحة الخلق ولا بالآداب العمومية

١٢ تكون المطبوعات مطلقة في دائرة القانون

١٣ التبعة العثمانية ماذونة ان تشكل ضمن دائرة النظام والقانون كل انواع الشركات لاجل التجارة والصنعة والفلاحة

١٤ اذا رأى احد التبعة العثمانية او عدة اشخاص منهم قضية متعلقة بهم او بالعموم مخالفة للقوانين والنظامات يحق لهم ان يقدموا بخصوصها عرضحال لمرجعها ويحق لهم كذلك ان يقدموا للمجلس العمومي عرضحال ممضيًا منهم بصفة مدعين وان يشتكوا من افعال المأمورين

١٥ امر التدريس يكون مطلقًا وكل عثماني مأذون بالتدريس خصوصيًا كان او عموميًا على شرط اتباع القانون المعين

١٦ توضع جميع المكاتب تحت نظارة الدولة ويجب التشبث في الاسباب التي تجعل التربية العثمانية على نسق واحد في الاتحاد والانتظام ولا يقع خلل في اصول التعليم المتعلق بامور معتقدات الملل المختلفة

١٧ يكون كافة العثمانيين متساوين في حقوق المملكة ووظائفها امام القانون فيما عدا الاحوال المذهبية والدينية

١٨ يشترط في مطلب استخدام التبعة العثمانية في خدمات الدولة ان يعرفوا اللسان التركي الذي هو لسان الدولة الرسمي

١٩ تقبل عموم التبعة في مأموريات الدولة ويستخدمون فيما يناسب منها بحسب اهليتهم ولياقتهم

٢٠ تطرح التكاليف المقررة وتتوزع على التبعة بنسبة اقتدار كل فرد منهم توفيقًا لنظاماتها المخصوصة

٢١ يكون كل فرد امينًا على ماله وعلى ملكه المتصرف فيه تصرفًا اصوليًا ولا يؤخذ من احد الملك الذي في تصرفه ما لم يثبت لزومه للمنافع العمومية وما لم يدفع له ما يساويه من الثمن نقدًا على موجب القانون

٢٢ يصان مسكن كل فرد في الممالك العثمانية ومنزله من التعرض وليس وسع الحكومة ان تدخل جبرًا الى مسكن احد او منزله بسبب من الاسباب فيما عدا الاحوال التي يعينها القانون

٢٣ على موجب حكم قانون اصول المحاكمة المقرر وضعه لا يجبر احد البتة على الذهاب الى محكمة غير المحكمة المنسوب اليها قانونياً

٢٤ السخرة والمصادرة والجريمة ممنوعات ويستثنى من ذلك التكاليف والاحوال التي تعين اصولياً في اثناء المحاربة

٢٥ لا يؤخذ من احد بارة الفرد تحت اسم ويركو ورسومات او تحت اي اسم آخر من غير ان يكون ذلك مسنداً على قانون

٢٦ التعذيب وكل انواع الاذية ممنوع بالكلية بالوجه القطعي

﴿ في وكلاء الدولة ﴾

٢٧ يحال مسند الصدارة والمشيخة الاسلامية الى من تأتمنهم الحضرة السلطانية وتجري كذلك مأمورية كافة الوكلاء بموجب الارادة السنية

٢٨ ينعقد مجلس الوكلاء تحت رئاسة الصدر الاعظم وهذ المجلس هو مرجع الامور الداخلية والخارجية وما يحتاج من قرار مذاكرته للاستئذان يجري بالارادة السلطانية

٢٩ كل من الوكلاء يُجري على وفق الاصول كل ما يكون داخلاً تحت مأذونيته من الامور العائدة لدائرته. وما كان خارجاً عنها يعرض على الصدر الاعظم فيجري الصدر مقتضى ما يكون منها غير محتاج للمذاكرة او يستأذن عنه من الحضرة السلطانية والذي يحتاج الى المذاكرة يعرضهُ على مذاكرة مجلس الوكلاء ويجري مقتضاه على موجب الارادة السنية. اما انواع هذه المصالح ودرجاتها فتتعين بنظام مخصوص

٣٠ وكلاء الدولة مسؤولون عن الاحوال والاجراآت المتعلقة بمأمورياتهم

٣١ اذا أورد احد اعضاء المبعوثان او عدة منهم شكاية على احد الوكلاء توجب عليه المسؤولية من قبيل بعض الاحوال الداخلة ضمن دائرة وظيفة هيئة المبعوثان يرسل رئيس الهيئة تقرير الشكاية المتقدم له في ظرف ثلاثة ايام الى الشعبة المأمورة بالتدقيق على ما يماثل هذه المواد لتنظر هل نظام هيئة المبعوثان الداخلي يوجب تحويلها الى الهيئة او لا. وبعد ان تجري الشعبة التحقيقات اللازمة وتستحصل من المشتكى عليه الايضاحات الكافلة يتلى لدى هيئة المبعوثان قرارها الذي يترتب بأكثرية

الآراء بلزوم التذكر على الشكاية . واذا مست الحاجة تستدعي الهيئة ذلك الذات المشتكى عليه وتسمع منهُ رأساً او من وكيله الايضاحات التي يوردها في هذا الباب ومتى قر القرار بالاكثرية المطلقة من ثلثي الاعضاء الموجودين على قبول الشكاية تقدم مضبطة طلب المحاكمة الى مقام الصدارة فيقدمها الصدر للعرض وتحال الكيفية الى الديوان العالي بعد تعلق الارادة السنية عليها

٣٢ ان اصول محاكمة المتهمين من الوكلاء ستعين بنظام مخصوص

٣٣ لا فرق بين الوكلاء وسائر افراد العثمانيين في كل انواع الدعاوي المتعلقة بانفسهم خاصة خارجاً عن مأموريتهم . اما محاكمة ما شاكل هذه الدعاوي والخصوصات فتجري في المحاكم العمومية المنوط بها رؤيتها

٣٤ يسقط من الوكالة كل الوكلاء الذين يقر قرار دائرة الاتهام في الديوان العالي على كونهم متهمين وذلك الى ان تتبرأ ذمتهم

٣٥ اذا اصر الوكلاء على احد المواد المختلف عليها بينهم وبين هيئة المبعوثان وكرر المبعوثان رفضها قطعياً بأكثرية الآراء المشفوعة بتفصيل الاسباب الموجبة لرفضها فيكون حينئذٍ بيد اقتدار الحضرة السلطانية تبديل الوكلاء او فسخ هيئة المبعوثان على شرط تجديد انتخابها في المدة القانونية

٣٦ اذا ظهر في بعض ازمنة انعقاد المجلس العمومي واجتماعه ضرورة مبرمة لوقاية الدولة من خطر او الامن العام من خلل في وقت غير مساعد على جلب المجلس المذكور وجمعه لاجل التذاكر في القانون الذي يرى لزوم لوضعه في تلك النازلة . فما تعطيه الوكلاء حينئذٍ من القرارات التي لا تغاير احكام القانون الاساسي تعتبر موقتاً بموجب الارادة السنية في قوة حكم القانون وذلك الى ان تجتمع هيئة المبعوثان وتعطي قراراً بخصوصها

٣٧ كل من الوكلاء يستطيع متى اراد ان يحضر في الهيئتين او ان يوجد بها بالوكالة عنهُ احد رؤساء مأموري معيته ولهُ حق التقدم على الاعضاء في ايراد النطق

٣٨ اذا قر قرار هيئة المبعوثان بالاكثرية ان يستدعي لحضوره احد الوكلاء للاستيضاح عن مادة ففي وسع الوزير المدعى ان يذهب الى الهيئة بالذات او يرسل

احد رؤساء مأموري معيته ليجاوب عما يسأل عنه وفي وسعه ايضاً ان يؤخر الجواب اذا وجد لزوماً على شرط ان تكون مسؤولية التأخير عليه

﴿ في المأمورين ﴾

٣٩ جميع المأمورين ينتخبون للمأموريات التي يكونون اهلاً لها على وفق الشروط التي سيتعين نظامها والمأمورين المنتخبين على هذا الوجه لا يعزلوا او يبدلوا
١٠ لم يتحقق قانونياً الحال الموجب عزلهم او ما لم يستعفوا من تلقاء انفسهم او ما لم يرَ لدى الدولة سبب ضروري لعزلهم . اما من كان منهم مستقيماً وحسن السلوك وانفصل عن مأموريته لسبب مقتضى لدى الدولة فله حق بالترقي او بالتقاعد او بمعاش معزوليته حسبما يتعين في نظام هذا المطلب المخصوص

٤٠ سيتعين نظام مخصوص لوظائف كل مأمورية على حدتها وكل مأمور مسؤول ضمن دائرة وظيفته

٤١ كل مأمور ملزوم باحترام آمره واطاعته ضمن الدائرة التي يعينها القانون اما اطاعته للآمر في الامور المخالفة للقانون لا تكون مداراً لتخليصه من المسؤولية

﴿ في المجلس العمومي ﴾

٤٢ المجلس العمومي يحتوي على هيئتين احداهما تدعى هيئة الاعيان والثانية هيئة المبعوثان

٤٣ اجتماع هيئتي المجلس العمومي في كل سنة يكون في بداية تشرين الثاني والمجلس المذكور يفتح او يغلق بموجب الارادة السنية وغلقه يكون في بداية مارث ولا تعقد احدى هاتين الهيئتين في زمان تكون به الاخرى غير مجتمعة

٤٤ للحضرة السلطانية ان تفتح المجلس العمومي قبل وقته اذا وجد لدى الدولة لزوم لذلك وان تنقص مدة الاجتماع المعينة او تزيدها وتمدها

٤٥ يتم افتتاح المجلس العمومي بحضور الحضرة السلطانية بالذات او بالوكالة بحضور الصدر الاعظم ووكلاء الدولة واعضاء الهيئتين معاً ويتلى في ذلك اليوم نطق سلطاني متعلق باحوال داخلية الدولة ومناسباتها الخارجية في ظرف السنة الجارية وفيما يجب اتخاذه من التشبثات والتدابير في السنة الآتية

٤٦ في اول يوم افتتاح المجلس يحلف بحضور الصدر الاعظم كل من الذوات المنتخبين او المنصوبين اعضاء المجلس العمومي بان يكون صادقاً للحضرة السلطانية ولوطنه وان يراعي احكام القانون الاساسي والوظيفة المودعة لعهدته وان يجتنب كل ما يخالف ذلك ومن لم يحضر في ذلك اليوم من الاعضاء يحلف على الوجه المشروح عند اجتماع الهيئة بمعرفة رئيس هيئته

٤٧ اعضاء المجلس العمومي يكونون احراراً في آرائهم ومطالعاتهم ولا يكون احد منهم تحت قيد تعليمات ووعد ووعيد ولا يتهم البتة من قبيل الآراء التي يعطيها ولا من جهة المطالعات التي يبينها في اثناء مذاكرات المجلس اذا لم تقع منهُ في جميع ذلك حركة مخالفة لنظام المجلس الداخلي . فاذا وقع يعامل بحكم النظام المذكور

٤٨ اذا احد اعضاء المجلس العمومي اتهم بالخيانة او بالتصدي لالغاء القانون الاساسي او نقضه او احدى تهم الارتكاب وتقرر اتهامه بثلثي الاكثرية المطلقة من هيئة الاعضاء الموجودين في الدائرة المنسوب اليها او حكم عليه بجزاء موجب لحبسه او نفيه قانونياً تسقط عنهُ صفة العضوية اما محاكمة هذه الافعال ومجازاتها فتجريها المحكمة المنوط بها ذلك

٤٩ لكل فرد من اعضاء المجلس العمومي ان يعطي رايه بالذات او يجتنب عن اعطاء رايه في رد تلك المادة الواقع عليها التذاكر او في قبولها

٥٠ لا يمكن لاحد ان يكون عضواً في الهيئتين معاً في وقت واحد

٥١ لا يبادر المذاكرة في كلتا هيئتي المجلس العمومي ما لم تكن الاعضاء المرتبة في كل منها زائدة واحداً بالعدد عن النصف وكافة المذاكرات تتقرر بالاكثرية المطلقة من الاعضاء الموجودين خلا تلك الخصوصات التي يشترط تقريرها باكثرية الثلثين ويعتبر راي الرئيس رايين عند تساوي الآراء

٥٢ اذا احد قدم لاحدى هيئتي المجلس العمومي عرضحال في دعوى متعلقة بشخصه وتبين انهُ لم يراجع في ذلك مأموري الدولة العائدة لهم تلك الدعوى او لم يراجع المرجع التابع لهُ اولئك المأمورون فعرضحاله يرد

٥٣ التكليف بتنظيم قانون جديد او بتعديل احد القوانين الموجودة منوط بهيئة وكلاء الدولة ويحق لهيئة الاعيان وهيئة المبعوثين ان تستدعيا بتنظيم قانون لاجل

المواد الموجودة في دائرة وظائفهم المعينة او بتعديل احد القوانين الموجودة وحينئذٍ يستأذن عنها اولًا من الحضرة العلية السلطانية بواسطة مقام الصدارة ومتى تعلقت الارادة السنية يحال الى شورى الدولة تنظيم لوائحها على مقتضى الايضاحات والتفصيلات التي تعطى من الدوائر المتعلق بها ذلك

٥٤ لوائح القوانين التي تنتظم بالمذاكرة في شورى الدولة بعد ان يجرى عليها التدقيق والقبول في هيئة المبعوثان ثم في هيئة الاعيان تكون دستورًا للعمل اذا تعلقت الارادة السنية باجراء احكامها ولائحة القانون المردودة من احدى الهيئتين ردًا قطعيًا لا يتكرر وضعها في موقع المذاكرة في المدة الاجتماعية بتلك السنة

٥٥ لا يعتبر احد القوانين مقبولًا ما لم تقرأ لائحته بندًا فبندًا في هيئة المبعوثان ثم في هيئة الاعيان ويعطى على كل بند على حدته رأي ويقر عليه القرار باكثرية الآراء ثم يقر القرار بعد ذلك على مجموع هيئتها تكرارًا بالاكثرية

٥٦ على الهيئتين ان لا تقبلا احدًا يأتي اليهما بالاصالة عن نفسه او بالوكالة عن جماعة لاجل افادة مادة من المواد ولا تسمعا افادته اذا لم يكن من الوكلاء او من موكليهم او من نفس اعضاء الهيئتين او من احد المأمورين المدعو رسمًا بالحضور اليهما

٥٧ مذاكرات الهيئتين تكون باللغة التركية واللوائح المقتضى اجراء المذاكرة عليها تطبع صورها وتتوزع على الاعضاء قبل يوم المذاكرة

٥٨ الآراء التي تعطيها الهيئتان تكون بتعيين الاسماء او باشارات مخصوصة او بالراي الخفي . اما اجراء اصول الراي الخفي فيتوقف اعطاء قراره على اكثرية آراء الاعضاء الموجودين

٥٩ ان انضباط داخلية كل هيئة على حدتها محصور برئيسها

﴿ في هيئة الاعيان ﴾

٦٠ لا يتجاوز عدد اعضاء هيئة الاعيان ورئيسها نهاية ما يكون ثلث مقدار هيئة المبعوثان . وتوظيفهم هو منوط راسًا بالحضرة العلية السلطانية

٦١ لا يمكن ان يكون عضوًا في هيئة الاعيان الّا من كان بالاقل بالغًا سن

الاربعين وهو من الذوات الذين حازت آثارهم وافعالهم وثوق العامة واعتمادها والمشهود لهم بحسن الخدمات المسبوقة في امور الدولة

٦٢ عضوية هيئة الاعيان تبقى ما دامت الحياة ويتعين بهذه المأموريات ذوات من معزولي الوكلاء والولاة ومشيري المعسكرات وقضاة العسكر والسفراء والبطاركة ورؤساء الحاخامات ومن فرقاء البرية والبحرية ومن سائر الذوات الجامعي الصفات اللازمة ومن يتعين منهم في غير مأموريات من مأموريات الدولة بناء على طلبه يسقط من مأمورية العضوية

٦٣ ان المعاش الشهري لكل من اعضاء هيئة الاعيان هو عشرة آلاف قرش واذا كان للاعضاء الوظفين معاش وتعيين من الخزينة باسم آخر اقل من عشرة آلاف قرش او ازيد يبقى على حاله

٦٤ على هيئة الاعيان ان تجري التدقيق على لوائح القوانين والموازنة التي تعطى لها من هيئة المبعوثان فاذا رأت فيها اساساً ما يمس الامور الدينية وحقوق حضرة الذات السلطانية السنية او ما يمس الحرية واحكام القانون الاساسي وتمام ملكية الدولة او ما يخل بامنية داخلية المملكة وباسباب المدافعة والمحافظة على الوطن او ما يخل بالآداب العمومية فلها حينئذٍ ان تورد مطالعاتها وتردها وترفضها قطعياً او تعيدها الى هيئة المبعوثان مصحوبة بملاحظاتها لاجل التعديل والتصحيح واللوائح التي تقبلها تصادق عليها وتعرضها على مقام الصدارة اما العرضحالات المقدمة الى الهيئة فتجري عليها التصديق ثم تقدمها الى مقام الصدارة مشفوعة بالمطالعات اذا رأت لذلك لزوماً

﴿ في هيئة المبعوثان ﴾

٦٥ ان مقدار اعضاء هيئة المبعوثان يترتب باعتبار نفر واحد لكل خمسين الفاً من ذكور التبعة العثمانية

٦٦ امر الانتخاب مؤسس على قاعدة الرأي الخفي وصورة اجرائه ستعين بقانون مخصوص

٦٧ لا يمكن ان يجتمع بعهدة ذات واحدة عضوية هيئة المبعوثان ومأمورية الحكومة معاً وانما تجاز العضوية لن ينتخب من الوكلاء واذا انتخب لعضوية المبعوثان

واحد من المأمورين فلهُ الخيار في قبولها ورفضها ولكن اذا قبلها ينفصل عن مأموريته

٦٨ ان الذين لا يجوز انتخابهم لهيئة المبعوثان هم اولًا الذين ليسوا من تبعة الدولة العلية ثانيًا الحائزون موقتًا بموجب النظام المخصوص لمتياز الخدمة الاجنبية ثالثًا الذين لا يعرفون اللغة التركية رابعًا الذين لم يكملوا سن الثلاثين خامسًا من كان في خدمة احد حين الانتخاب سادسًا من كان محكومًا عليهِ بالافلاس ولم يعد اعتباره سابعًا من اشتهر بسوء الاحوال ثامنًا من حكم عليهِ بالحجر ولم يتمكن من رفعهِ تاسعًا الساقط من حقوق المدنية عاشرًا المدعون التابعية الاجنبية فهؤلاء لا يمكن ان يكونوا اعضاء في هيئة المبعوثان ويشترط في الانتخابات التي تجري بعد اربع سنين على من يلزم ان يكون مبعوثًا ان يقرأ اللغة التركية وان يكتب بها ايضًا على قدر الامكان

٦٩ ان انتخاب المبعوثان العمومي يجري مرة واحدة في كل اربع سنين ومدة مامورية كل مبعوث عبارة عن اربع سنين وانما يجوز تكرار انتخابه

٧٠ يبتدأ بانتخاب المبعوثان العمومي اقلها يكون باربعة اشهر قبل تشرين الثاني الذي هو مبدا اجتماع الهيئة

٧١ كل عضو من هيئة المبعوثان لا يعتبر وكيلًا عن الدائرة التي انتخبته وانما يكون في حكم وكيل عموم العثمانيين

٧٢ المنتخبون يلتزمون بانتخاب المبعوثان من اهالي دائرة الولاية المنسوبين اليها

٧٣ اذا فسخت هيئة المبعوثان وتفرقت بالارادة السنية يبتدا بانتخاب عموم المبعوثان مجددًا على وجه ان يجتمعوا في مدة لا تتجاوز ستة اشهر بعد الفسخ

٧٤ اذا مات احد اعضاء هيئة المبعوثان او وقع في احد الاسباب المشروحة الحجرية او لم يداوم على المجلس مدة طويلة او استعفى او سقط من الاعضاوية الحكومية او لقبوله مامورية فينتخب لمحله خلافه حسب الاصول بحيث يلحق الاجتماع الآتي

٧٥ ان الاعضاء التي تنتخب لتحل في مقام الاعضاء المنحلين من العضوية تكون ماموريتهم حتى الانتخاب العمومي الآتي

٧٦ يعطى من الخزينة عشرون الف قرش لكل من المبعوثان عن كل اجتماع

سنوي ويعطى له كذلك مصاريف الذهاب والاياب حكم المامور الذي يكون معاشه خمسة آلاف غرش شهرياً توفيقاً لنظام ماموري الملكية

٧٧ ينتخب من طرف الهيئة ثلاثة انفار لرئاسة هيئة المبعوثان وثلاثة انفار لكل من الرئاسة الثانية والثالثة مجموع ذلك تسع ذوات فيعرضون على الحضرة السلطانية فيترجح احدهم بالارادة السنية السلطانية للرئاسة واثنان منهم كذلك لوكالتي الرئاسة وتجري ماموريتهم

٧٨ مذاكرات هيئة المبعوثان تكون علانية ولكن اذا وقع التكليف من جانب الوكلاء او من طرف خمس عشرة ذاتاً من هيئة المبعوثان على ان تكون المذاكرات خفية على احدى المواد المهمة فيخلى محل هيئة الاجتماع من الحاضرين فيه دون الاعضاء وتتراجع حينئذٍ الآراء في رد هذا التكليف او قبوله

٧٩ لا يحاكم احد الاعضاء او يوقف في مدة اجتماع هيئة المبعوثان ما لم يعط قرار من الهيئة باكثرية الآراء على سبب كافٍ لاتهامه او يقبض عليه في حال اجراء الجناية او الجنحة او عقيب اجراء ذلك

٨٠ ان هيئة المبعوثان تتذاكر على لوائح القوانين المحولة لها ولها ان تقبل من ذلك المواد المتعلقة بالامور المالية والقانون الاساسي او ترفضها او تعدلها وبعد ان يجري التدقيق بالتفصيل في هيئة المبعوثان على المصارف العمومية حسبما هو موضح في قانون الموازنة يعطى القرار على مقدارها مع الوكلاء ثم يتعين كذلك مع الوكلاء سوية كمية وكيفية ما يقابل ذلك من الواردات وصورة توزيعها وتداركها

﴿ في المحاكم ﴾

٨١ لا يعزل القضاة المنتخبون توفيقاً للاصول المخصوصة المنصوبون من طرف الدولة بموجب براءة شريفة بايديهم وانما يقبل استعفاؤهم . اما ترقيات هؤلاء الحكام ومسلكهم وتبديل ماموريتهم وتقاعدهم او عزلهم لجرم محكوم به عليهم ذلك جميعه تابع لحكم قانونه المخصوص وهذا القانون يوضح الاوصاف المطلوبة من القضاة ومن ماموري المحاكم

٨٢ كل انواع المحاكمات تجري علانية في المحاكم ويؤذن بنشر الاعلامات

دائماً وانما تستطيع المحكمة ان تجري المحاكمة خفياً بناء على الاسباب المصرحة في قانونها

٨٣ يستطيع كل شخص ان يستعمل بحضور المحكمة كل ما يراه لازماً من الوسائط المشروعة لمحافظة حقوقه

٨٤ لا يمكن للمحكمة باي حجة كانت ان تمتنع عن روءية الدعوى الداخلة ضمن دائرة وظيفتها. وبعد ان يكون ابتدئ بفحص الدعوى او بما لزم من التحقيقات الاولية لا يجوز كذلك تعطيلها او تعويقها ما لم يكف المدعي يده. اما في الدعاوي الجزائية في مطلب الحقوق العائدة للحكومة فالدعوى تستمر في مجراها على وفق النظام

٨٥ كل دعوى تنظر في المحكمة المتعلقة بها. اما الدعاوي الواقعة بين الحكومة والاشخاص فترى في المحاكم العمومية

٨٦ المحاكم محترفة من كل انواع المداخلات

٨٧ الدعاوي الشرعية ترى في المحاكم الشرعية والنظامية في المحاكم النظامية

٨٨ ان صنوف المحاكم ودرجات وظائفهم وصلاحيتهم وتقسياتها وتوظيف الحكام جميعه مستند الى القوانين

٨٩ لا يجوز البتة ان يتشكل خارجاً عن المحاكم العمومية محكمة فوق العادة او قومسيون يكون في وسعهما النظر في بعض مواد مخصوصة والحكم عليها وانما يجوز فقط تعيين المولي والتحكيم كما هو معين بالقانون

٩٠ لا يمكن لاحد الحكام حال كونه بصفة الحاكمية ان يجمع في عهدته كذلك مامورية اخرى ذات معاش من الدولة

٩١ يعين مدعون عموميون مامورون بالمحاماة عن حقوق العامة في الامور الجزائية وتتعين وظائفهم ودرجاتهم بقانون

﴿ في الديوان العالي ﴾

٩٢ الديوان العالي يركب من ثلاثين عضواً عشرة منهم من هيئة الاعيان وعشرة من شورى الدولة وعشرة يفرزون بالقرعة من روءساء واعضاء محكمتي التمييز والاستئناف ويعقد هذا الديوان في دائرة هيئة الاعيان بالارادة السنية عند اللزوم

ووظيفته انما هي محاكمة الوكلاء ورؤساء محكمة التمييز واعضائها ومحاكمة كل من اعتدى على ذات الحضرة السلطانية وعلى حقوقها وكل من تصدى لالقاء الدولة في خطر

٩٣ يقسم الديوان العالي الى دائرتين احداهما الدائرة الاتهامية والثانية ديوان الحكم فاعضاء الدائرة الاتهامية تسعة منهم ثلاثة من هيئة الاعيان وثلاثة من ديوان التمييز والاستئناف وثلاثة من اعضاء شورى الدولة وجميعهم ينتخبون بالقرعة من الاعضاء الذين يؤخذون للديوان العالي

٩٤ ان هذه الدائرة تعطي القرار باكثرية الثلثين في اتهام الذوات المشتكى عليهم او عدمه والموجودون في الدائرة الاتهامية لا يوجدون في ديوان الحكم

٩٥ ان ديوان الحكم تكون اعضاؤه سبعة من هيئة الاعيان وسبعة من ديوان التمييز والاستئناف وسبعة من رؤساء شورى الدولة واعضائها فيكون مركباً اذاً من واحد وعشرين نفراً من اعضاء الديوان العالي . والاعضاء المرتبة كما ذكر يحكمون باكثرية الثلثين قطعياً وتطبيقاً للقوانين الموضوعة على الدواعي التي قر قرار الدائرة الاتهامية على محاكمتها وحكمهم غير قابل الاستئناف والتمييز

﴿ في امور المالية ﴾

٩٦ لا يمكن وضع احد تكاليف الدولة وتوزيعه واستحصاله ما لم يتعين بقانون

٩٧ ان ميزانية (بودجه) الدولة هي قانون مبين بالتقريب وارداتها ومصارفاتها وهو القانون المستند عليه بوضع تكاليف الدولة وتوزيعها وتحصيلها

٩٨ ان البودجه اعني قانون الموازنة العمومية يقبل في المجلس العمومي بعد التدقيق عليه مادة فمادة والجداول المربوطة به الجامعة لمفردات الواردات والمصارفات المخمنة تنقسم الى اقسام وفصول ومواد متعددة توفيقاً لانموذجها المتمين نظاماً والمذاكرات عليها تجري فصلاً فصلاً

٩٩ ان لائحة قانون الموازنة العمومية تعطى لهيئة المبعوثان عقب فتح المجلس العمومي ليمكن وضعه في موقع الاجراء قبل دخول السنة المتعلق بها

١٠٠ لا يجوز صرف مال من اموال الدولة خارجاً عن الموازنة ما لم يتعين بقانون مخصوص

١٠١ اذا تحقق لزوم قوي لاختيار مصاريف خارجة عن الموازنة لاسباب مجبرة فوق العادة في الوقت الذي لا يكون فيه المجلس العمومي منعقداً يجوز تدارك المبلغ اللازم لتسوية ذلك المصروف وصرفهٔ بعد عرضه على الحضرة السلطانية والاستئذان وصدور الارادة السنية بخصوصه على وجه ان تكون مسؤولية ذلك على هيئة الوكلاء وانهم يعطون لائحة القانون المتعلقة به الى المجلس العمومي عقب فتحه

١٠٢ ان حكم قانون الموازنة هو عن سنة واحدة ولا يجري حكمه خارجاً عن تلك السنة وانما اذا فسخ مجلس المبعوثان لبعض احوال خارقة العادة قبل ان يقرر الموازنة فوكلاء الدولة اذاً يعدون جريان احكام موازنة السنة السابقة لحد اجتماع مجلس المبعوثان الآتي وذلك بقرار تتعلق عليه الارادة السنية على وجه ان حكم القرار لا يتجاوز السنة الواحدة

١٠٣ ان قانون المحاسبة القطعية يبين صحة المبالغ المتحصلة من واردات تلك السنة ومقدار المصرفيات الواقعة لمصارفها ويكون شكله وتقسيماته مطابقين بالتمام لقانون الموازنة العمومية

١٠٤ تعطى لائحة قانون المحاسبة القطعية الى المجلس العمومي بعد اربع سنين نهاية ما يكون من اعتبار ختام السنة المتعلقة بها

١٠٥ يترتب ديوان محاسبات لرؤية محاسبات مأموري قبض اموال الدولة وصرفها والتدقيق على محاسبات السنة التي تنظمها الدائر على وجه ان الديوان المذكور يعرض على هيئة المبعوثان مرة في السنة خلاصة تدقيقاته ونتيجة مطالعاته بتقرير مخصوص وعليه ايضاً ان يعرض على الحضرة السلطانية مرة في كل ثلاثة اشهر تقريراً عن احوال المالية بواسطة رئاسة الوكلاء

١٠٦ تتركب اعضاء ديوان المحاسبات من اثني عشر شخصاً وينصب كل

منهم بالارادة السنية ويستمرّ في ماموريته ما دامت الحياة ولا يفصل عنها ما لم تصادق هيئة المبعوثان بالاكثرية على لزوم عزله

١٠٧ تتعين اوصاف اعضاء ديوان المحاسبات وتفصيل وظائفهم وصورة استعفائهم او تبديلهم او ترقيهم او تقاعدهم وكيفية تشكيل اقلامهم وترتيبها بنظام مخصوص

﴿ في الولايات ﴾

١٠٨ تأسس اصول ادارة الولايات على قاعدة توسيع دائرة المأذونية وتفريق الوظائف وتعيين درجاتها بنظام مخصوص

١٠٩ توسع بقانون مخصوص صورة انتخاب اعضاء مجالس الادارة في مراكز الولايات والالوية والقضاوات وانتخاب اعضاء المجلس العمومي الذي يجتمع مرة واحدة في السنة في مركز كل ولاية على حدتها

١١٠ تبين وظائف اعضاء المجلس العمومية في الولايات بقانون مخصوص يوضع لها ويشتمل كذلك على المذاكرات في مطلب تنظيم الطرق والمعابر وتشكيل صناديق الاعتبار وتسهيل الصنائع والتجارة والفلاحة وما يجري مجراها من الامور النافعة وعلى ما يتعلق ايضاً بانتشار المعارف والتربية التي تعود منفعتها على العموم ويحتوي على ما لهذه المجالس من الصلاحية بعرض الاشتكا للمقامات والمواقع الذي يقتضي تبليغ الشكايات لها عند ما يرى ما يخالف احكام القوانين والنظامات الموضوعة في مطلب صورة توزيع التكاليف والرتبات الاميرية واستحصالها وفي مطلب سائر المعاملات وذلك لقصد سد الخلل واصلاحه

١١١ يكون في كل قضا لكل ملة على حدتها مجلس جماعة للنظارة على صرف اموال الوصية للموصى لهم على ما هو محرر في الوصايا على وجه ان تصرف حاصلات المسقفات والمستغلات والنقود الموقوفة الى المشروط لهم والى الخيرات والمبرات وفاقاً لشرط الوقفية والتعامل القديم وللنظارة كذلك على صورة ادارة اموال الايتام توفيقاً لنظامها المخصوص وهذه المجالس تتركب من افراد منتخبين من كل ملة على

حدة على مقتضى النظامات المخصوصة التي تترتب في هذا المطلب وعلى هاتيِ المجالس ان تعترف بان مرجعها انما هو حكوماتها المحلية ومجالس الولايات العمومية

١١٢ تدار الامور البلدية في دار السعادة والمحلات الخارجة عنها بواسطة مجالس الدوائر البلدية التي تترتب بالانتخاب وصورة تشكيل هذه الدوائر ووظائفها وكيفية انتخاب اعضائها ستتعين بقانون مخصوص

﴿ في مواد شتّى ﴾

١١٣ اذا شهد امارات وآثار تزيد ظهور اختلال في احدى جهات الممالك فيحق للحكومة السنية والحالة هذه ان تعلن موقتاً ومخصوصاً « الادارة العرفية » في ذلك المحل والادارة العرفية انما هي تعطيل القوانين والنظامات الملكية موقتاً . والمحل الذي يوضع تحت الادارة العرفية تتعين صورة ادارته بنظام مخصوص . ومن ثبت عليهم بتحقيقات ادارة الضابطة الموثقة بانهم اخلوا بامنية الحكومة يكون اخراجهم من الممالك المحروسة وتبعيدهم عنها منحصراً بيد اقتدار الحضرة السلطانية

١١٤ افراد العثمانيين مجبورون على تحصيل المرتبة الاولى من المعارف وستتعين درجات ذلك وفروعه بنظام مخصوص

١١٥ لا تعطل البتة مادة من مواد القانون الاساسي ولا تسقط من الاجراء باي حجة او سبب كان

١١٦ اذا شهد لزوم صحيح قطعي حسب ايجاب الوقت والحال لتغيير بعض مواد القانون الاساسي وتعديلها يجوز تعديلها على الشروط الآتية وهي : اولاً ان يقع التكليف المتعلق بالتعديل من هيئة الوكلاء او من هيئة الاعيان او من هيئة المبعوثان ثانياً ان يقبل التكليف المذكور في هيئة المبعوثان باكثرية الثلثين ثم يصادق على قبوله من هيئة الاعيان ايضاً باكثرية الثلثين فمتى تم ذلك وتعلقت على هذا المركز الارادة السنية تصير حينئذ تلك التعديلات دستوراً للعمل . اما المادة الواقع التكليف على تعديلها من القانون الاساسي فتستمر مرعية الاجراء من غير ان تفقد قوتها وحكمها الى ان تتم المذاكرات اللازمة بتعديلها وتتعلق بخصوصها الارادة السنية

١١٧ اذا لزم الامر لتفسير مادة قانونية وكانت متعلقة بالارادة الملكية يناط

العذراء مريم في لبنان

للاب ي . ي . اليسوعي

ذكر المشرق في صفحته ٥٥٨ من السنة الجارية التأليف الجليل الذي اتحفنا الوطن الاب يوسف غودار اليسوعي ووعد ان يفرد له مقالة واسعة نظراً لاهميته وها اننا اليوم نفي بوعدنا فنقول:

لكل قطر فضيلة يمتاز بها عمّا سواه ويفاخر بها من باراه . وهي تارةً مجد الحروب وصولة السيوف . واخرى براعة الاقلام وبلاغة الكلام . وطوراً هي الغنى والمال وطوراً العلم والصناعة الى ما شاكل ذلك . وان لبناننا العزيز لم يُستثنَ من هذا الحكم فاذا عدّدت المفاخر يوماً فما اولاه ان يتباهى بما حازه منها

يفتخر لبنان اولًا بجمال الطبيعة الذي زيّنه به الله وقد طالما شادت بذكره الاجيال فقد مدحه الكتاب المقدسة في العهد العتيق اكثر من ستين مرة . وكانت ثلوجه وعطوره وارزه وعلوه الشامخ وخصب تربته ومياهه الصافية الباردة ومناخه المعتدل تجعله في اعين بني اسرائيل اجمل صقع في الدنيا . والحق يقال ان لبنان كان اورشليم مغشى بغابات الارز والسنديان حتى قال مار ايرونيموس في احدى رسائله : ما من مكان اعلى واكثر احراجاً واكثفها من لبنان . وقد قال كاتب روماني آخر اميانوس مرشلينوس عن السواحل اللبنانيّة : انها بلاد في غاية الحسن والملاحة . وقد اثرت محاسن لبنان في قلوب المسافرين والسياح في كل الاجيال . قال احدهم وهو الڤيكنت دي مرشلوس في كتابه عن الشرق (١٨٢٠) : اني افضل لبنان وظلاله وصخوره واديارَه على كل ما رأيت وشاهدت في اوربة

يفتخر لبنان ايضاً بتاريخ اجياله والمنصرمة يكاد يرتقي الى مهد الانسانيّة . فقد طار في الآفاق ذكر المدن الفينيقيّة كصور وصيدون وبيروت وجبيل وطرابلس وارواد التي حكرت بين ايدي اهلها تجارة العالم اجمع واشتملت بمستعمراتها على سواحل البحر المتوسط قاطبةً . وشهدت الاصقاع الشاميّة مواقع الفاتحين العظام الذين تنازعوا ملك العالم المتمدن منذ الاجيال الاولى فكانت ولم تزل مطمح ابصار الامم لانها طريق

البلاد الاسيوية الوسطى وباب التجارة الهندية. هذا فضلاً عن الرجال العظام الذين نشأوا في لبنان وكانوا له مجداً مؤبداً

ولكن هذه المحاسن دون مجد آخر يفوقها وفضلها ألا وهو تمسك لبنان بدين المسيح وامانته في خدمته. فقد كان ملجأً للمسيحيين في ايام الشدة ولولاه لما بقيت النصرانية زاهرة في الاصقاع الشامية. فأكرم بشعبه شعباً حافظ مدى الاجيال مع ما داهمهُ من الاهوال على حبه للمسيح. فلعمر الحق ان هذه الامانة لمجداً لا يضاهيه مجد وفخراً لا يفوقهُ فخر. وان اصل هذا المجد وسبب هذا الفخر العذراء مريم

ان مريم ولبنان لاسمان بل لموضوعان جمعهما الكتاب المقدس في قلبنا. فمن منا لم يحفظ الاقوال البديعة الطافحة منها الليتورجيات المقدسة حيث يرد لبنان كموضوع تشابيه تجلى بها محاسن العذراء مريم: «هلمي معي من لبنان ايتها العروس» (١. «اني ارتفعت كالأرز في لبنان الخ» (٢

قال القديس ايرونيمس (٣: «لبنان معناه البياض فبكل صواب شبهت به العذراء مريم لان فضائلها جعلت نقاوتها انصع من الثلج». وقال آخر (٤: «ان مريم لجديرة بان تشبه بلبنان لانها جبل الله ذاك الجبل الذي نُحت منهُ حجر الزاوية اعني به المسيح»

ولم يتشرف مكان غير لبنان بان يكون موضوعاً للتشابيه التي يبين بها الروح محاسن البتول امنا وان في هذه الميزة لسبباً كافياً ليفاخر لبنان ما سواه من الاصقاع. ومع ذلك يحق له ان يدَّعي مجداً اعظم. فمن اول نشوء العبادة لمريم في الساحل الفينيقي لم يزل اسم مريم العذراء ام الله في لبنان على افواه ابنائهِ في كل احوالهم صلاة يستمطرون بها النعم. وتعزية يسكّنون بها لوعة الاحزان. ونشيد عزّ يقدّسون به ايام الانتصار. فكأن اللبناني اراد ان يشكر للعذراء الشرف الذي خولتهُ اياه باتّخاذها لبنان جبلاً لها فاحب ان يحفظ في قلبه عبادتها حيّةً زاهرة كأرزه مجيد وظهر تلك العبادة

---

١) نشيد الاناشيد (٤: ٨)
٢) ابن سيراخ (٢٤: ١٧)
٣) طالع تفسيره لنشيد الاناشيد (ص ٤ ٣٠)
٤) وهو مق كاتا كوزن في شرحه لنشيد الاناشيد (ص ٢ ٩٠)

بتشييد المعابد المتعددة على اسمها واقامة الاحتفالات القلبيّة اكراماً لها . وبالاختصار يمكن القول ان العذراء كانت له كل شيء.

كانت له طبيباً وقاضياً ومحامياً. قضى زمناً طويلاً معتزلاً عن العالم في اوديته العميقة وعلى قممه البعيدة المنال بين الدير والكنيسة قشفاً في معيشته فقيراً مضطهداً. فاتكل بكل قواه الى العذراء مريم يتوقع منها كل خير. فطلب منها الخلاص الابدي والخير الزمني. العافية والانتصار وقوت اليوم. وكما ان الامطار نحتت صخوره نحتاً وصورتها صوراً مختلفةً هكذا العبادة لمريم صورت نفس اللبناني وجعلت له «خلقاً مريمياً» اعني ميلاً الى العذراء شديداً اصبح غريزياً تبدو مظاهره في كل احواله عفواً بلا قسر ولا تصنع

وقد انتبه لهذا الامر السياح والمرسلون فدوّنوه مراراً في كتاباتهم حتى رينان نفسه مدة اقامته في الشرق بعد سنة ١٨٦٠ . فقد اعتبره كاعظم حاجز في وجه البروتستانتيّة. قال: «ان عبادة العذراء متأصلة في قلوب كل اللبنانيين وهي التي تحبط مساعي البروتستانت فيما بينهم فانهم يتساهلون بكل الامور ويسلمون بها ولكنهم اذا دعوتهم الى ترك التعبد للعذراء شعروا برباط لا تقوى عليه عزائمهم . يقيدهم ويمنعهم » (١

هذا ما حدا بالاب مرتين المرسل اليسوعي الشهير من اربعين سنة الى جمع شذرات عديدة فيما يتعلق بحب اللبنانيين لمريم بينما كان يعنى بتأليف تاريخ لبنان. ولكن مجموعه بقي منسياً في مكتبة كليّة القديس يوسف حتى اكتشف عليه في سنة ١٨٩٨ الاب يوسف غودار فهمّ ان يجعله قاعدة لتأليف جديد كامل شامل

وما كان يخلو العمل من الصعوبات لان الاب كان في عزمه ان يتخذ المبادئ العلميّة الحديثة اساساً لابحاثه ولم يكن مع ذلك بين يديه من التآليف سوى بعض فقرات منثورة في كتب متعددة. ولكنه لم يقنط من النجاح. فأخذ في التجوال في لبنان وسوريّة بصحبته الاب جيرار دي مرتنبري فزار كل نواحيها مرتين الاولى في سنة ١٨٩٨ والثانية سنة ١٩٠٢ ليجمع ما يتسنى له من المعلومات ويفحص بذاته الاماكن التي عزم على وصفها وهو مع ذلك يتدفح في اثناء اسفاره كل ما نالته يداه من الكتب

---

١) طالع البعثة الفينيقية (ص ٢١٦)

والمخطوطات ويزيد عليها كل ما استفاده من المرسلين وثقات اللبنانيين. فكانت نتيجة هذه الاتعاب والابحاث مؤلفاً جليلًا بالافرنسيّة في ٥٥٠ صفحة مع القطع الكبير تزينه اكثر من ٧٠٠ صورة كلها او اغلبها نشرت لأول مرة طُبع في معامل (La Bonne Presse) في باريس بحرف جلي مشرق والحق يقال ان تلك المطبعة الشهيرة لم تنشر احسن منهُ تأليفاً ولا ابدع صنعة وهو مع ذلك لا يساوي سوى سبعة فرنكات ونصفاً

امَّا اذا اردت معرفة الطريقة التي اتبعها الاب غودار في تأليفه فيمكننا القول ان كتابه عبارة عن حديث زائر يصف الاماكن التي حج اليها. وقد راقت في عينه هذه الخطة اوّلًا لانها كثيرًا ما كانت تطابق عواطف قلبه التقوية. وثانياً لانها كانت تسمح له ان ينظم ما يلتقطه من الدرر المريمية في سلك الحوادث التاريخيّة والاوصاف الجغرافية بنوع ان يتمكن القارئ من الاطلاع على عبادة اللبنانيين للعذراء اطلاعاً جسيًا حيًا كأنهُ يشاهدها عيانًا

وفي الواقع ان مظاهر الحياة تملأ صفحات الكتاب فان انشاء المؤلف وبراعته في الوصف. وتفننه في طرق القص. وابداعه الاستعارات والتشابيه الانيقة وقفت حضرته الى احياء ما دثر من الرسوم السابقة وتشخيص ما يحدث من الامور الجارية يومياً في قرانا. فما احلى مصاحبته في سفره. تارة يهبط في اودية لبنان العميقة واخرى يتسلق قممه الشاهقة. يحج الى المعابد الكبيرة في المدن ولا ينسى المزار الحقير في القرى الحقيرة. تراه يعاين كل شيء. يفحص ويسأل ويصغي. يستشهد الشعراء اللبنانيين لا يستحقر حقيرًا ولا يستجهل اميًا. يدون التفاصيل الدقيقة عن الكنائس ويستنسخ ما ورد منها في المخطوطات والسجلات. ويصف الحركات واللهجات ويحاكي كل ما من شأنه تمثيل نفس اللبناني تمثيلًا باطنًا

وما يُعجبنا منهُ فضلًا عن عواطفه التقوية ولهجته السارة ومعارفه الواسعة في التاريخ والجغرافية وظرفه ولطف مزاحه. حبه بل قل شغفه وكلفه بالبلاد التي يصفها. فكم من مرة تشعر عند وصفه لمعبد حقير او شهوده زيارة تقوية انهُ استعبر متأثرًا لما ظهر له من بساطة اللبنانيين وتقواهم وتعلقهم بسيدتهم. ولذلك لا تشعر بالتعب ابدًا من مرافقته في سياحته. واليك مختصر كتابه قسمًا قسمًا لتقف على الكنوز التي يحويها وتشتاق الى التمتع بها

ففي القسم الأوّل الذي عنوانه « على حدود صور وصيدا » يذكر المؤلف مزارات الناصرة وخاصةً كنيسة سيدة الكرمل « المنتصرة » ثم يمرّ على عكا ومنها يؤمّ صور حيث أُنشئت اول كنيسة عظمى مكرسة للعذراء يثبتها التاريخ بنوع آكيد (سنة ٣١٤) ومن صور يتوجه الى صيدا ويصف في طريقه سيدة عبرا وسيدة درب السين ويذكر خبر ترميمها العجيب بمساعي احد المشايخ المتاولة. ثم يستوقفنا مليًّا عند سيدة المنطرة وهو مزار الروم الكاثوليك. ويختم كتابه بذكر بدائع الخورية على اسم العذراء كانت زاهرة في صيدا في القرن السابع عشر

امّا القسم الثاني فمداره على جهات لبنان المقيم فيها الدروز وفيه يطلعنا الاب اولا على اصل الدروز ويصف اخلاقهم وطباعهم. وليس الكلام في مثل هذه المواضيع فضوليًا لانهُ لا يمكن وصف الدور المهم الذي اتخذته لها العذراء مريم في لبنان الا بتعريف تاريخ لبنان وطباع اهله. ثم تجد في هذا القسم كلامًا في عدّة معابد مثل سيدة الخلدة وسيدة النجاة عند النبي يونس وسيدة الوادي بالقرب من جزين النخ. ولكن المؤلف يتوسع في وصف ثلاثة اماكن خصوصًا وهي سيدة المخلص وكان لها نصيب وافر في النهضة الكاثوليكيّة في الجيل الثامن عشر ثم سيدة بسري وخاصةً سيدة التلة في دير القمر. وهو مزار شهير للموارنة يدير شؤونه الرهبان الحلبيون على احسن ما يرام ويحج اليه حتى اليوم اللبنانيون من كل ناحية

القسم الثالث موضوعه المتن وكسروان. يسافر بنا المؤلف من بيروت ولكن قبل ان يترك المدينة يشخص امامنا مشهدًا بديعًا مشهد شابين قديسين ورد ذكرهما في اخبار الجيل السادس للمسيح. ثم نتسلق بصحبته الجبال ونزور سيدة النجاة في بكفيا ومنها نهبط الى بيت شباب لزيارة سيدة الغابه وفي اثنائها نسمع حديث الامير حيدر ابي اللمع وكان من اخص عبيد العذراء مريم. ثم بعد ذلك يتوغل في مضايق نهر الكلب ونسلم على سيدة طاميش وسيدة اللويزة ونرتقي الى المشارف الكسروانية التي سماها المؤلف « واحة البطاركة » وبكل صواب لان اليها التجأ البطاركة في أيام المحن. فبطريرك الارمن الى سيدة بزمار وبطريرك السريان الى سيدة الشرفة وبطاركة الموارنة الى سيدة بكركي فيصف المؤلف كل هذه الكنائس التي انتصبت بينها سيدة لبنان على قاعدتها العالية في حريصا ثم سيدة البزاز في حارة صخر وسيدة الابراج في غزير.

وقد كان لها أيام عزّ في عهد المشايخ الحبيشيّة. وسيدة الحقلة في غابة فوق دلبتا. وبعدها يصعد بنا الكاتب الجرد فقزور وايله سيدة حراجل في ميروبا وسيدة الكفور وسيدة الشقيف في الفتوح

يستهل المؤلف القسم الرابع واسمهُ « ارض تموز » بوصف عبادة الاله تموز ثم يبين كيف دحرت العذراء مريم الوثنيّة واقامت في كل مكان بدلًا من مناسكها الرجسة معابد تكرم فيها ام الطهارة والقداسة. ويخص بالذكر ناحيتين ناحية مدرسة مار يوحنا مارون وناحية نهر ابراهيم حيث تعدَّدت المعابد الصغيرة ولها الاحاديث اللذة. منها سيدة البئر المشرفة على وادي نهر ابراهيم وسيدة غشريا تحت مجشوش في موقع طبيعي بديع سمّيت العذراء فيه « ام العجائب »

وبعد ذلك ننزل الى جبيل حيث نجد عدَّة كنائس للعذراء منها « سيدة البوابة » يحج اليها الزوَّار بكثرة حتى اليوم. ونسير على سيف البحر حتى بترون وفيها سيدة البحر ومن هناك نعكف على الجبل ونزتقي فيه ونزور دير ميفوق. وفي زيارتنا نسمع حديث دير سيدة أيليج مقرّ البطاركة الموارنة قديمًا. ثم ينتهي هذا القسم الرابع بخبر مقابلة حبيسين معتزلين بالقرب من السيدة

في القسم الخامس ينتقل بنا المؤلف الى لبنان الاعلى وقد سماه « بلاد الرهبان » ولا عجب من هذا الاسم لان الناحية كثيرة الاديرة ولاسيما الحابس في وادي القاديشا. أمّا ابتداء هذه الرحلة فمن طرابلس حيث نجد سيدة الحارة وسيدة النعمة وقد نقلت صورتها المجانيّة الى كنيسة الفرنسيسكان التي في القاهرة في حي الموسكي . ثم من طرابلس نصعد الى سطح الجبل الذي عليه زغرتا. هناك كنيسة كبيرة للعذراء. بيرت بسيها مواقع شتى ابلى فيها اهل زغرتا وادّخروا لهم سمعة طيبة بشجاعتهم وقوتهم. ومنها نرتقي الى مشارف الجبة ونتمتع بمرأى محاسنها النتأئة . لان الاب يصفها وقلبه طافح اعجابًا. وبعد اخذ نصيب من الراحة في دير قزحيا البديع الموقع نصل الى الاماكن التي اشتهرت في تواريخ الموارنة. هناك سيدة حوقا وسيدة قنوبين مقر البطاركة. اكرم مزار للعذراء في تلك الناحية. ثم سيدة الحصن في اعلى بلدة اهدن . وقد سماها الاهلون « رمح اهدن » لانهم ينسبون اليها انتصاراتهم على اليعاقبة والمتاولة. واخيرًا تحت ظلال الارز ننحني امام التي نسيها في الطلبة ارزة لبنان فان لها هناك مصلّى صغيرًا

بعد الجبة جبل النصيرية. وهو موضوع القسم السادس من الكتاب وفي اول فصل منهُ بحث مطوَّل في كنيسة سيدة طرطوس التي طارت شهرتها في الآفاق الاوربيَّة على عهد الصليبيين وهي الآن جامع. وفي آخر القسم وصف سيدة الحصن بنيت قديمًا بقرب حصن في ايام الصليبيين ورمَّمها الآباء اليسوعيون. وفي خلال الزيارتين يقص علينا الكاتب طرفًا واقاصيص مفكهة عن العذراء التقطها من افواه اهالي تلك الجبال

ها قد وصلنا في القسم السابع الى حمص فبعد مسير طويل جنوبًا نجمع في اثنائهِ كل ما تسنى لنا جمعه من اخبار وتقاليد قديمة يقف بنا المؤلف في رأس بعلبك في دير قديم جدًّا للروم الملكيين تكرم فيه سيدة الميلاد. ثم يسير بنا الى بعلبك ويشرح لنا اخربتها العجيبة وما كان فيها لعبادة العذراء من الآثار المسيحيَّة ومن بعلبك نستأنف المسير معترضين السهل الى دير الاحمر. هناك الموارنة بنوا معبدًا حسنًا للسيدة في بشوات ومن دير الاحمر نتوجه جنوبًا الى الفرزل وزحلة حيث تكرم سيدة النجاة للروم الكاثوليك وأخيرًا الى تعنايل حيث اقام الآباء اليسوعيون كنيسة بديعة لسيدة التعزية. امَّا الصورة المكرمة في تعنايل فقد كانت اولًا في طورينو ثم اخذها المرسلون الى الجزائر ومنها شرفت البقاع واستقرت فيه

بقي على الكاتب ان يصف لنا البقعة الدمشقية وما تحويه من الآثار المريميَّة وقد عني بهذا الوصف في آخر هذا القسم واسهب في الكلام عن مار يوحنا الدمشقي الذي اشتهر بحبه للعذراء والمحاماة عن حقوقها وفضائلها. وختم القسم بل وزياراته كلها بزيارة سيدة صيدنايا التي تغني شهرتها من ذكر محاسنها

امَّا القسم الثامن والاخير فهو عبارة عن نظر عام في عبادة الشرقيين للعذراء وكل متعلقاتها. فان المؤلف يبحث فيه عن ميزات هذه العبادة وخواصها وذلك في مظاهرها من كنائس ومعابد وطقوس وزيارات واحاديث وتماثيل وكل ما يعرّفها حق المعرفة. وفي الختام يعرب المؤلف عن وطيد رجائه في شفاعة البتول وحمايتها لبلاد بالغت في اكرامها

هذا هو المؤلف الجليل الذي اتحفهُ حضرة الاب غودار قرَّاءنا الشرقيين فبعد مطالعته يشعر القارئ انهُ طاف بلادًا تغللتها العذراء مريم واحتضنتها من كل وجه. وما احسن

ما قاله في هــذا المعنى (ص ٧٤ و ٤٩٤): « ان العذراء مريم كانت كمحور دارت حوله الوقائع والحوادث التي شهدها اهل لبنان وقد كانت اكثر حروبه حروبًا دينيَّة... ويتأكد الباحث ان جمة معابد لا لها اهميَّة بالظاهر هي للنواحي التي فيها بمنزلة القلب للجسم البشري. يزورها اللبناني ويتعلق بهـا بكل عروق قلبه كما تتأصل الشجرة في شقوق الصخور رويدًا رويدًا ولكن بقوة لا تُقهر » . وتزيد على ذلك ان من طالع الكتاب يحظى فوائد جمة عن تاريخ لبنان

ونختم قائلين انهُ ينبعث من هذا التأليف شعاع نور منعش . نور الرجاء والثقـة في مستقبل بلادنا . فان التي حفظت للبنـان ايمانه وجامعته فيما مضى ستحفظهما له في المستقبل مع ما طرأ وسوف يطرأ عليهما من عوامل الخراب . ويحسن بنا ان نذكر هنا ما قاله يومًا غبطة بطريرك الموارنة في اثناء زيارة جمعت كل افراد كليتنا: « ان الزوابع الهائلة تتهدَّدنا غير ان العذراء التي حمت لبنان سوف تحميه ثانيةً . وكما ان للجنود في ظلمات المعامع شعارًا يعرفون به اصحابهم ويحذرون به مكايد العدو كذلك ان لنا نحن ايضًا شعارًا ورجاء وهو العذراء مريم »

وقد فطن لهذا الامر كل الذين سعوا ولا يزالون يسعون في خير لبنان من مرسلين ومحسنين، فانهم لا يقدمون على عمل الَّا بظل حماية العذراء.. لما تألفت شركة فرنساوية في سنة ١٨٤٦ لاعانة مسيحيي لبنان باشرت اعمالها في ٢ شباط بتكريسها للعذراء مريم في كنيستها الباريسيَّة المعروفة بسيدة النصر الامة المارونيَّة . وقد ثبَّت التكريس البابا بيوس التاسع بعد ذلك بسنتين . وكأني بلبنان قد اراد ان يخلد ذكر حبه للعذراء وحماية العذراء له في اثر فخيم باقامته لسلطانه المحبوبة تمثالًا يبلغ مع قاعدته ٣١ مترًا فاذا ما رآه المسافر عن بعد عرف ان العذراء وضعت رجلها الطاهرة على قمم لبنـان وتملكتها وان من وطئ ارضه دخل تحت سلطانها وحمايتها

هذا وقد احببنا ان نشفع مقالتنا في هذا التأليف الجليل ببعض منتخباته (١ تتمة للفائدة وتفكهًا للقرَّاء.

---

١) وهي تعريب جميل افندي خوري تلميذ كليتنا سابقًا

وصف كسروان وذكر شيء من اخباره (١٧٠–١٧٤)

هو اشبه بحصن حصين من الحجر الاصم. من ناحيته الشرقيَّة انتصب صنين كسور طبيعي يدافع عنهُ. ومن جهتيهِ الشماليَّة والجنوبيَّة حفر لهُ نهر ابراهيم ونهر الكلب خندقين هائلين لا مجاز لهما. ومن وجهته البحريَّة حماه خط ابراج شاهقة شرفاء اقامتها لهُ الجبال. ودعاها اسطرابون «السلَّم الجبلي». وفي داخل المربع الذي حدَّدناه من الاودية العميقة والجبال المتشبكة ما حمل احد المرسلين على القول: «ان منظرها لمخيف حتى انهُ يجعل في القلب بغض الخطيئة وحب السماء». وكفى ببعض المدافع اذا نصبت في اعلى هذه الشرفات حتى تقاوم عسكرًا جرَّارًا

امَّا تاريخ البلاد فظاهرها يحدّث بها كما ان ملامح الرجل تخبر بما في صدره. فهيئة كسروان هيئة جبَّار شديد الجبلة مشبوح العظام مُندّب الوجه تدل على انهُ صاحب حرب وصراع. والحق يقال انهُ لكذلك. فمن ايام مَرَدة الجيل السابع حتى العصاة الذين احتلُّوه بعد الصليبيين لم يزل كسروان همًّا ومفزعة لاعدائه... وقد اضطر سلاطين مصر ان يرسلوا بعثين و يزحفوا اليهِ بخمسين الف مقاتل من المماليك ليتمكنوا من احتلاله وتذليل سكَّانه وكان مع ذلك خوف المصريين من البسالة اللبنانيين فائق الحدّ حتى اضطر قوَّادهم على المناداة بخنق كل جنديٍّ يرتد الى الوراء هربًا. وقد توالت الوقائع الهائلة مدَّة احد عشر يومًا لان اللبنانيين كانوا يدافعون عن ارضهم شبرًا شبرًا. فكان المصريون يهاجمون كل ثنيَّة ورابية وكل شقٍّ في الجبل للاستيلاء على البلاد ولم يسقط ذلك الجبار العنيد الَّا في سنة ١٣٠٦. وقلَّد التركمان حراسته (١ فتهموا ان الراحة لا تستتب لهم في كسروان الَّا اذا سالموا السكَّان فأمَّنوهم وراحوهم وبينما كان المتاولة لا ينفكون عن غزو الموارنة في شماليّ لبنان ولا يدعون لهم لذّة عيش كان الكسروانيون في امنٍ وسلام. فاضحت بلادهم ملجأ المضطهدين. ومأوى الهاربين. وما عتمت ان اكتسبت صخورهم الجرداء خضرة ونضارة. وامتدت على رؤوس جبالهم القرى والمزارع الآهلة

---

١) طالع تأليف دي كاترمير في السلاطين المماليك. الجزء الثاني: حوادث سنة ٧٠٦ ه

نعم لم تشرق بعد على المسيحي شمس الحريّة التامّة. فان الماروني بقي بعد ذلك عبدًا لا حقوق له مرعيّة وفلاحًا ضعيفًا يئن تحت الحمل في مسكنه الحقير ولا يسمع له صوت. ولكن ذلك كان فجر الحريّة واول طلوعها. ولم يكن غير قليل حتى بزغت عليه انوارها ودقت ساعة الخلاص. فتملص الكسروانيون من ايدي ظالميهم واعتقوا باقي اخوتهم اللبنانيين فدعي لذلك كسروان «سيف لبنان»

في اواخر الجيل السادس عشر استجار ببعض الموارنة في بلونة اميران من الدروز بعد قتل ابيهما الامير قرقماز معن في قلعة نيحا المشهورة بشقيف تيرون. وكان هذا الماروني ابراهيم بن سركيس الخازن. والاميران فخر الدين الشهير واخاه يونس. وكان في تلك الأيام أيام بلابل واضطراب ان حملة او غزوة تخضع ولاية واخرى تسترجعها في الغد

كان فخر الدين خطيبًا بليغًا ورجلًا مقدامًا جريئًا. خدمه السعد فاسترد بمساعدة متقذيه الموارنة ولايات ابيه ووسع نطاقها ثم تملك على كسروان واحتل بيروت واخضع لامره بلاد الجليل وزحف بجنوده حتى جبال حوران البركانيّة. ولكن نجمه أفل سريعًا فتوارى وتغلب عليه اعداؤه والجأوه الى الهرب الى ايطاليا. وهناك لاذ بآل مديسيس وزار بولس الخامس. ثم في سنة ١٦١٧ ظهر في عكّا بغتةً وكسر جيش اعدائه واحتل سوريّة من دمشق الى بحيرة لوط ومن طرابلس الى القدس الشريف فقدم له الطاعة كل المشايخ والامراء وقبائل العرب ودعوه «سلطان البرّ»

وكان تعلقه عظيمًا باوربس الثالث عشر وبمملكته حتى انه كان يحسب نفسه من جنس الفرنج. فرمم كنيسة الناصرة وغيرها من المعابد. وعقد معاهدات تجاريّة وشيّد خانًا لتجار الفرنسيس في صيدا. واستحضر من فلورنسا جماعة من مشاهير ارباب الفنون...

ولم يكن لينسى من احسن اليه في بلونة ولا الدينَ الذي الهم ذويه المحبة للقريب والاغاثة للملهوف وكان سبب نجاته. فانتشل الخوازنة من ايدي الحمول وجعلهم له عمّالًا فاخذ بنو الخازن يتقدمون في سبل الشرف والمجد مع ذاك الرجل العظيم الذي لاذ بحمايتهم. وقد اختار الرب منهم قسيسين اتقياء. ولبنان بطاركة عظامًا. وفرنسا قناصل والباباوات امراء رومانيين. وكما ان نعمتهم صدرت عن فعل خير بقيت كلها لفعل الخير

قال بعض المعاصرين: « وكانت عيشة الموارنة حتى تلك الأيام شقيّة. لا يأكلون خبزهم الّا مبتلًا بدموعهم.. لا نصيب لهم سوى الضرب والقيود والسجن وفقد الحرية » (١. فاخذ بنو الخازن بناصر اخوتهم بكل همة ونشاط...

وكانوا قد جاؤوا من شمالي لبنان فيمن جاء منهُ هربًا من جور المتاولة فتحصنوا في كسروان وساعدهم الدروز على محاربة اعدائهم فطردوهم من كسروان فاصبح « قلب الطائفة المارونيّة وملجأ العبيد الآبقين من المدن فيهِ يجدون الامن والراحة » (٢

قال بعض سيّاح القرن الثامن عشر (٣ : « ان البلاد الكسروانيّة ملجأ كل المسيحيين. فترى فيها كثيرًا من الاديرة وعددًا عديدًا من الرهبان والراهبات. وكل الكنائس لها قبب واجراس. والديانة فيها حرّة كما في بلادنا الفرنساويّة... وذلك لان سكانها وكلهم من الموارنة رجال حرب وبطش. حكامهم اربعة من مشايخ آل الخازن. لهم سطوة وصولة وفي وسعهم ان يسلحوا ثلاثة آلاف مقاتل فاذا انضموا الى امير الدروز تمكنوا من مقاومة باشا صيداء »

وزد على ذلك مجدًا اعظم من مجد الحروب. فقلما تجد في ذلك العصر عمل خير او مشروعاً مفيدًا الّا وللخوازنة فيهِ اليد الطولى. فكم من بائس انقذوه وعاثر اقالوه ومظلوم حصلوا لهُ حقوقه. حتى ان احدهم وهو الشيخ الشهير ابو نوفل كان يقول: « اني حامل في قلبي النصارى كلهم فلا يجرحهم احد الّا ويجرحني »

وقد كان للعذراء مريم قسم وافر من تبرعات هذه الاسرة الكريمة فساعدتهم على اعلاء شان المسيحيين في كسروان. فان كثيرًا من الصور والاديرة والكنائس التي على اسم السيدة مؤرخة من ذلك العهد

بقي علينا في الختام ان نتمنى لتأليف الاب غودار معرّبًا يقرّب من الشرقيين مناله ويعمم فوائده

---

١) طالع كتاب بسون (Besson) في سورية والارض المقدسة (ص ٨٠)
٢) من رسالة دي بوالفاش (de Poislevache) في ١٥ تشرين الاول سنة ١٦٩٨
٣) وهو غرانجه (Granger) – عن مخطوطات وزارة الخارجية في باريس ٣٢٢ و٢٧

خادم امين

رواية افرنسية عرَّبها ببعض التصرف الاديب بشاره خليل الحوري احد تلامذة كليتنا

كانت جبال القفقاز في اوائل القرن التاسع عشر مستقلةً بعد وان كانت الاراضي المحيطة بها من كل جانب خاضعة لحكم الروس. وكان سكان تلك الجبال ينقسمون الى قبائل متعددة مختلفة اللغات والعوائد والصوالح لا جامعة بينهم سوى شراسة الاخلاق وحب الغزو والاستقلال. وكانت قبيلة الجنكز اكثرهم عدداً واشدّهم بأساً. رجالها حسان الشكل اقوياء القلب متوقدو الذهن. غير انهم يحبون السلب والنهب. لا يرأفون بمخلوق ولا يتعطفون على ملهوف. ولا يزالون يشنون الغارات على العساكر الروسية المقيمة على «الخط». لان الدولة المسكوبية كانت قد فتحت طريقاً في تلك الجبال وبين تلك القبائل المتوحشة لتصل بها اقاليمها الاوربية واملاكها الاسيوية. واقامت على حراستها جنوداً يسكنون قليعات قريبة بعضها من بعض تتسلسل على شكل «خط» متقطع حتى بلاد الكرج. ومع ذلك لم يكن المسافرون ليجترئوا على قطع المسافات الفاصلة بينها ان لم تصحبهم بعض الجنود فكانت فرقة من الدفعية يدعمها عددٌ عديد من خيالة «القوزاق» ترافق المسافرين مرتين في كل اسبوع وتحمل بريد الحكومة. وكان قائد الجنود القائمين باعباء هذه الخدمة مقيماً في قليعة مشيدة على مدخل الجبال اصبحت مع تمادي الزمن مدينةً آهلة بالسكان واسمها ڤلادي ققفاز اي مالكة القفقاز سميت بذلك لمناعة موقعها

فاتفق يوماً ان الماجور كسكنبو من الاي ڤولوجدا تُقلد الامر على قلعة نَرْس في مضائق القفقاز وكان شريفاً من اسرة روسية الاصل شجاعاً مقداماً لا يبالي بخطر. فقصد مركزه ولم يكن معهُ غير خمسين فارساً وكان قد اعلن امره ونشر سره قبل انجازه. فما علم بهِ الجنكز حتى جمعوا قواهم وخرجوا يسدون في وجهِ الطريق. فكمن لهُ منهم سبعمائة فارس وفاجأوه على مسافة يسيرة من مدينة مُزْدُك (١ فلمَّا رأى القائد ان الرجوع على الاعقاب اصبح من المحال وان لا نجاة الاَّ بالقتال امر فرسانه

١) وهي مدينة على نهر الترك (Terek) في سفح جبال القفقاز شمالاً

فترلوا من جيادهم واخذوا يصدون هجمات العدو وهم يترقبون النجدة من قلعة لم تكن بعيدة عنهم . ولم يكن املهم بالنجاة ضعيفاً لان القفقازيين يعجزون عن مقاتلة جنود منظمة وان كان افرادهم شديدي البأس . الّا انّ عددهم الوافر ورصاصهم الصائب مكّناهم يومئذٍ من الفوز والانتصار . فبعد قتال عنيف قتلوا من الروس ما يربي على نصف عددهم ولبث الباقون متحصنين وراء جثث خيولهم يطلقون طلقاتهم الاخيرة . فعندها صاح الجنكز : سلّموا الينا القائد والّا هلكتم عن آخركم شرّ هلاك . فتقدم حينئذٍ القائد كسكتيبو ودفع بنفسه الى الاعداء ضنّاً بحياة جنوده الباقين فما ظفر به القفقازيون حتى اقبلت النجدة المنتظرة . فلما رأوها ولّوا مسرعين باسيرهم لان غايتهم انما كانت الانتفاع منهُ وطلب مبلغ عظيم فدًى عنهُ

وكان إيڤان خادم القائد متخلفاً عن الجنود في وقت الموقعة مختبئاً في مغارة ومعهُ بغل عليه ثقل سيده . فلما انتهى القتال لقيه العسكر الروس فاخبروه بما كان من امر الماجور فعزم للحال على اللحاق بهِ ومشاركته الأسر وتوجه ببغله الى الجنكز يقتفي آثار خيولهم . ولما كاد ظلام الليل يخفيها صادفه رجل منهم متخلف عن اصحابه فذهب به اليهم

فلا تسأل عما خالج قلب كسكتيبو من الفرح لما رآه من كرم اخلاق خادمه الامين الذي اتى يقاسمه الشقاء والعناء . اما الجنكز فاخذوا ما كان مع ايڤان وتقاسموه ولم يتركوا للقائد سوى عود كان بين الاثقال فردوه على صاحبه استهزاء . واراد كسكتيبو ان يرميه فمنعه خادمه وقال : لا تيأس سيدي فان اله الروس عظيم(١ وان صالح هؤلاء اللصوص ان يبقوك ولا يلحقوا بك شرًّا فتصبّر

وبعد مضي بضع ساعات عزم الجنكز على استئناف السير . غير ان رجلاً منهم قدم عليهم وانذرهم ان الروس يواصلون الزحف الى الامام وانهُ يرجح ان جنود باقي القلع ستشاركهم في مطاردة الجنكز . فتشاور رؤساؤهم وكان جل اهتمامهم الخفاء عنهم ليحافظوا على اسيرهم ويبعدوا عن قراهم عساكر الاعداء وينجوا من انتقامهم . فتشتت شملهم وذهبوا طرائق وابقوا لحراسة الاسير بن عشرة رجال من الشاة ولبث

١) وهو مثل سائر فيما بين الروس يقولونه في ساعة الخطر

مئة من الفرسان متجمعين ثم ساروا في وجهة مخالفة لوجهة كسكتبو وحراسه. ونزعوا من رجل كسكتبو جزمته المسمرة خشية ان تفضحهم آثارها واضطروه وخادمه ان يمشيا حفاة الارجل ولكن السير بين الشوك وعلى الصخور ادمى رجلي القائد واضناه حتى رأى اللصوص ان يُرجعوا اليه حذاءه ليتمكن من مواصلة الهرب معهم

ولما وصلوا الى قرية من قراهم ظهر لهم ان الاسير اعيا حتى انهم خافوا على حياته. وكان الهم قد اضناه وهزله اكثر من تعب المشي فرفقوا بهِ واراحوه واركبوه فرساً غير انهم اخذوا ينتقلون بهِ من قرية الى قرية ومن واد الى واد حتى تخفى آثاره على الروس. وربما ربطوا عينيه بعصابة مدة السير ليتعذر عليهِ اطلاع اصحابه على مقامه. وكانوا يحسنون معاملته طول السير ويقدمون له ما احتاج اليهِ من الطعام. ويأذنون له بالراحة ما شاء. غير ان هذه المعاملة لم تدم فما وصلوا الى القرية البعيدة التي اختاروها ليحبسوه فيها حتى اذاقوه من انواع النكال امرّها. فكبلوه بالحديد وغلّوا يديه ورجليه وعنقه بسلاسل ثقيلة. اما إيفان فكانت قيوده اخف تسمح له بالقيام بخدمة سيده.

فقضى القائد على تلك الحال اياماً كان فيها عرضة للاهانات والشتائم فكان كل ما اشرق النهار دخل عليه احد الجنكز العارفين باللغة الروسية والحّ عليه ان يكتب الى اصحابه ويحرضهم على دفع ديته وقيمتها عشرة الاف روبل. وكان القائد المسكين عاجزاً عن دفع هذا المبلغ. الا انه لما الحوا عليه وعد الترجمان بتلبية طلبهم فخرج هذا من عنده ولبث اياماً لم يرجع الى الاسير. وكانهم انتهزوا فرصة هذه الايام ليزيدوا في تعذيبه فقطعوا عنه الاكل ونزعوا من تحته البساط الذي كان جالساً عليهِ والوسادة التي كان يتكئ عليها لينام. ولما رجع الرجل المذكور اسرّ الى القائد انهم عازمون على قتله فراراً من المصاريف الباهظة التي كانوا يتكبدونها بسببه ان لم يُلبِّ الروس طلبه. وانما كانت غايتهم من معاملتهم هذه القاسية اجبار القائد على طلب الدية بالحاح. فكتب كسكتبو كما ارادوا وترجم الرجل الكتاب لرؤساء القبيلة فرضوا بهِ واخذوا على انفسهم ان يرسلوه الى قائد الجنود الروسية فتحسنت مذ ذاك حالة الاسير ولم يبقَ مقيّداً الا بسلسلة واحدة. وكان سجّان كسكتبو شيخاً اسمه ابراها له من العمر ستون عاماً. وكان طويل القامة ذا منظر مخيف يدل على ما طبع عليهِ من

القساوة والفظاظة وقد اختاروه سجاناً لا يهدوه فيه من البغض والحنق على الروس اذ قتلوا له ولدين في الحرب

وكان في بيت ايراها المذكور ارملة احد ولديه لها غلام حديث السن وكانت هي ايضاً على جانب عظيم من قساوة القلب وشراسة الطباع . فحدّث عما كابده القائد المسكين من الالم بين ذلك القوم ولا حرج . غير ان لطف الصبي وما كان يظهره من عواطف الشفقة خفف وطأة مصابه . فقد كان الغلام كلف بالسجين حتى ان التهديدات لم تقوَ على منعه من مؤانسته كلما سنحت له فرصة . وكان قد سماه بلفظة « قنياق » ومعناها عندهم الصديق والضيف فاخذ يقاسمه سراً كل ما تالته يداه من الثمار ولما مُنع القائد القوت حنّ الولد عليه فكان يحتال حتى يأتيه بما يأكل من خبز وفاكهة

مضت الاشهر بعد ارسال الكتاب دون حديث امر ما وكان ايفان في اثنائها توصل الى استعطاف خاطر المرأة والشيخ او بالاحرى الى اجبارهم على التعلق به لمعرفته تهيّ المآكل والمشارب اللذيذة . ولكي تزداد ثقتهما به اكثر من التهريج فكان يبدع كل يوم حيلة ليضحك اصحابه وكان ايراها يطرب كل الطرب حينما كان ايفان يرقص رقصة القوزاق . فجعل كلما زاره بعض سكان القرية حلّ قيود ايفان وامره بالرقص فيلبي طلبه بطيبة خاطر ويزيد على حركات الرقص قفزات غريبة يستنبطها كل مرة ليضحك الزائرين . وما زال على تلك الحال حتى نال الاذن بالتجول في القرية مطلق الحرية . وكان اذا طاف بين البيوت لحقه الاولاد وهو يطربهم بلطيف مداعبته وظريف حركاته ولما كان يعرف اللغة المغولية لم يصعب عليه تعلم لغة القوم وكانت قريبة منها

اما الماجور فكان يضطر هو ايضاً ان يضرب بالعود ليطرب الاعلاج الذين كان بينهم وكانوا في اول الامر يفكون اغلال يده اليمنى ليتمكن من الضرب ولكن المرأة لاحظت بعد ذلك ان السجين اذا اراد التسلي ضرب بالعود احياناً وهو مقيّد . فاخذوا يجبرونه على الدق دون حل قيوده . فاصبح العود مدعاة للعذاب . وما كان يعلم اذ ذاك ان آلته ستكون يوماً وسيلة تساعده على نجاته من الاسر

تلك النجاة كانت موضوع افكار الاسيرين وجل رغائبهما . فما اكثر ما خطر لهما من الحيل لبلوغ مأربهما فضاقت منها ذرعاً لشدة سهر الجنكز عليهما فكانوا في اول الامر يقيمون على باب الحبس خفيراً كل ليلة . ثم تراخوا عن الخفارة فكانت المرأة

وصغيرها يرقدان في غرفة بالقرب من غرفة الروسيين ولا يبقى مع الاسيرين سوى ابراها وفي جيبه مفاتيح القيود يحفظها ويتيقظ لادنى حركة. وكانت عيشة القائد تزداد شقاء ومرارة من يوم الى يوم ولما لم يرد جواب على كتاباته المتكررة حنق الجنكز عليه وجعلوا يردون اليه يقذفونه بالشتائم ويتذرونه بأليم العذاب او يمنعونه عن الاكل حتى ان ابراها ضرب حفيده يوماً ضرباً مبرحاً لانهُ جاد على السجين ببعض الاثمار اليابسة

وكان الكل مع ذلك يثقون بكسكنبو ثقةً عمياء ويستشيرونه ويجعلونه حكماً فيا بينهم اذا اختلفوا. واليك بعض ما رفعوه اليه من الدعاوي الغريبة

سلّم بعض سكان القرية خمسة روبلات الى رفيق لهُ كان مسافراً الى قرية اخرى وطلب اليه ان يدفعها الى رجلٍ منها. فمات برذون المسافر في الطريق فرأى ان لهُ حقاً بحفظ الخمسة الروبلات تعويضاً عن الخسارة التي لحقت بهِ. فلم يوافق هذا الحكم الغريب صاحب المال فما رجع المسافر الى القرية حتى علا القال والقيل بين الخصمين. فحشد كل واحد منهما اقاربه واصحابه وكادت الحال تفضي بهم الى القتال لو لم يتلافَ عتاظم الشرّ ويحملوهم على تحكيم السجين في المسألة. فأخرج من بيته وأصعد على السطح. وكان الخصوم واقفين بانتظاره فلما رأوه عمّ الجمع سكوت عظيم كأن على رؤوسهم الطير. فأعجب بهِ من قاضٍ مقيد واخصام مسلحين بالطبنجات والخناجر قاموا يترافعون امامه ويترقبون منهُ حكماً قاطعاً لا مردّ عليه

فبذل كسكنبو جهده في اقناع صاحب الفرس فلم تنجع حججه فيهِ فاراد على الاقل ان ينتقم للعدل انتقاماً يسيراً ويضحك الحاضرين من المدّعي. فقال لهُ: أعجب منك يا رجل أُتراك لو كلفك صاحبك بحمل السلام الى غريمه بدلاً من الخمسة الروبلات أما كان مات فرسك؟ فاجاب المعاند: لعله كان ذلك. فقال القائد: فما كنت فعلت والحالة هذه بالتحية؟ أما كنت تضطر الى الاكتفاء بها تعويضاً عن خسارتك؟ فأحكمُ اذن ان ترجع المال الى صاحبه وتكتفي بقبول التحية والسلام منهُ »

فما تُرجم القضاء حتى استغرب الحضور ضحكاً وضجوا استحساناً لما رأوه من حكمة ضاهت حكمة سليمان واقرّ المحكوم عليهِ بعدل الحكم وقال: كنت عالماً ان الحكم يكون عليّ ان ترافعنا امام هذا السجين اللعين

ولكنَّ الثقة التي ابداها اللصوص لسجينهم لم تكن لتخفف شقاء حاله. مضت

عليه سنة ولم يرد اليه جواب على رسالاته ولما كان في تلك البرهة عروماً حتى من ضروريات المعيشة وهنت قواه وضعفت صحته واخذ اليأس يستولي عليه. اما إيقان فان ابراها فكَّ يوماً اغلاله فيجعل الخادم يغدو ويروح في القرية بلا معارض فتعجب ككتبو من امره وسأله عن سبب ذاك الانقلاب. فاجابه ايقان مولاي قد خالجني فكر منذ ايام اريد ان استشيرك عليه. سنح لي ان اغيّر جنسيتي السكوبية وانضم الى اهل القبيلة فاصبح كواحد منهم. قال ككتبو: هل اعتراك جنون. قال ايقان: لا وحقك يا سيدي لست بمجنون وانما في عملي هذا وسيلة لخلاصنا فان كبير القوم أكّد انهم اذا اوثقتُ عرى الاخاء معهم وصرتُ جنكزياً لا يعودون يقيّدونني فأصبح حرًّا فاتمكن من مساعدتك وخدمتك. ولعلي انجيك يوماً واياي من هؤلاء الاوغاد فاعود اذ ذاك الى جنسيتي ولا اظنّ ان احداً من مواطنيَّ يلومني. فتحيَّر القائد من امره ولم يدرِ ما يقول. أينكر على خادمه عملًا كان يحسبه خيانة لوطنه لم يأذن له بانتحال جنسية ربّما آلت الى خلاص كليهما. فلما رأى ايقان سيده متردداً قال له: سيدي لست بقادر على طاعتك فلا سبيل الآن الى اخفاء امري وقد كان يودي كتمانه فاني جنكزيٌّ من يوم فُكّت اغلالي واسمي قربات فلا بأس في ذلك. فاني حرّ وساحررك ان شاء الله

والحق يقال ان الجنكز وفوا لايقان ما وعدوه به فاطلقوا له الحرية التامة الّا انهم بعد ذلك خافوا ان يهرب من بيتهم ويرجع الى الروس ويعلمهم بمكانهم فيجتاح الروس بلادهم وينتقمون منهم شرّ انتقام. وكانوا يلعنون ساعة دخول ايقان في مؤاخاتهم. فما عتم ان تغيّروا عليه وظهرت للعيان دلائل انقلابهم وايقان يطلب سبب ذلك ولا يجد. فبينا يضرب اخماساً لاسداس اذ جاء اليه بعض الشبان ربطتهم واياه عرى الصداقة فسألوه ان يرافقهم في غزوة ازمعوا عليها. وكان في نيّتهم ان يعبروا نهر الترك (Terek) ويسلبوا متاع تجار قاصدين مدينة مُزدُك فاجابهم ايقان الى سؤلهم بلا تردد وقد طالما فكر في طريقة اقتناء بعض الاسلحة فظنها الفرصة اللائقة. ثم كان يرى في رجوعه الى مولاه بعد الغزوة برهاناً مقنعاً يفحم من كان يظنه خائناً. فقاتح ككتبو في الامر فانكر القائد رأيه. فتناساه الخادم حتى ظن القائد انه عدل عن عزمه غير انه لما افاق يوماً من رقاده لم يجد ايقان فعرف انه توكه ليلًا وسار في اصحابه للغزوة المذكورة

وقد كان يجب عليهِ ان يحذر من غدر الجنكز وهم اكثر الناس خبثاً ودهاء ويستغرب كيف يستصحبون في مقاتلة الروس روسيًّا وان انما لهم. وانما قصدوا في ذلك قتل ايفان موارَبةً لان دخوله فيما بينهم كان يوجب عليهم مراعاة حقوق الاخاء ظاهرًا. فرأوا ان يتحفظوا عليهِ في السير ثم يقتلوه في القتال ويوهموا ان الاعداء قتلوه. الَّا ان الحوادث اتت بما لم يكن في الحسبان. فبينما كانوا في المرصاد يترقبون مرور القافلة اذ هجمت عليهم كوكبة من القوزاق واضطرتهم الى الرجوع على الاعقاب فأنساهم عظم الخطر مكيدتهم وعبروا النهر ثانيةً مسرعين لا يبالون الَّا بانقاذ انفسهم من ايدي الاعداء.

وكان النهر قويًّا كثير المياه فكبا فرس احد الجنكز وهو عابر فجرته الامواج وكادت تودي بهِ لولا ان ايفان البطل اقتحم المياه بفرسهِ وانتشل الفارس من الغرق غير مبالٍ بحياته وانزله على الشاطئ سالمًا. الَّا ان الروس عرفوا ايفان من بزّته العسكرية فصاحوا بهِ: يا للخائن وصوبوا عليهِ نيران بنادقهم فدافع عن نفسه مدافعة الابطال وعاد بعد ما ابلى احسن بلاء وخدم القبيلة خير خدمة

ولم يتوصل مع ذلك الى استمالة قلوب الجميع غير ان الجنكزي الذي خلصه اخلصه الوداد واتخذه لهُ اخًا يدافع عنهُ بالنفس والنفيس امَّا الباقون فازدادوا تحفظًا منهُ لما رأوه من شجاعته ولم يعودوا يعتبرونه كهرج يعجز عن اقتحام الاخطار واتيان الامور العظام. ثم لمَّا كانوا يعاودون النظر في حوادث الغزوة المشؤومة كانوا يتعجبون من وجود الروس بالقرب منهم فيظنون ان ايفان يراسلهم ويطلعهم على اخبارهم فرابهم ذلك من ايفان وزادهم حذرًا منهُ وسهرًا عليهِ حتى ان ابراها نفسه خاف ان يحتال ويفكّ اغلال سيده فمنعهُ من محادثته مليًّا وجعل يضرب بهِ اذا عصى امره

غير ان ايفان والقائد استنبطا حيلة مكّنتهما من التحادث دون ان يرتاب ابراها بهما. فكانا اذا ارادا التكلم بشؤونهما امامه يتغنيان بالحان روسية جريًا لعادتهما فيأخذ المأجور عوده ويضرب ويغني ما بدا لهُ ويضمّن الغناء الكلام الذي يريد تبليغه صاحبه والاستفهام منهُ. فيجيبهُ ايفان على اللحن ذاته ويفيده والمأجور يضرب على العود كأنهُ يوقع عليهِ غناء بسيطًا. ولما كانا اعتادا قبلًا هذه الطريقة في الغناء لم يفطن احد لحيلتهما. ومع ذلك لم يلتجئا اليها الَّا فيما ندر

*

بعد مضي ثلاثة اشهر على الحوادث السابقة شعر ايفان بحركة غير مألوفة في الضيعة فقد كان ورد اليها بعض البغال محملة بارودًا ثم جعل الرجال ينظفون الاسلحة ويهيئون الخرطوش فعرف ان بعض القبائل المجاورة انخرطت تحت لواء الروسيين ورخصت لهم ببناء حصن في اراضيها وان اصحابه عزموا على استئصال شأفتها وابادة العساكر الروسيين قاطبةً. وبعد ايام قلائل لما خرج ايفان من بيته صباحًا الفى الديار خالية فارقها كل من له طاقة على حمل السلاح فاخذ يتجوّل في انحائها فزاده ذلك يقينًا بما كان رآه من قلة ثقة الجنكز به. فكان الشيوخ يبتعدون عنهُ وينفرون من محادثته وتجرأ صبي وقال له ان اباه يريد قتله. فرجع الخادم كئيبًا مهمومًا

وانهُ لكذلك اذ رأى على سطح احد البيوت امرأة تومئ اليهِ أن ابتعدْ وهي تشير الى وجهة البلاد الروسية. وكانت المرأة اخت الجنكزي الذي خلصه ايفان

ولما رجع الى البيت رأى ابراهما يتفقد اغلال كستنبو كانهُ يريد ان يتحقق متانتها ومعهُ رجل آخر ابقاه القوم لان الحمّى انهكت قواه واعجزتهُ عن اللحاق باصحابه فجعلوه مساعدًا لابراهما على حراسة السجين. فلم يظهر ايفان تعجبه من ذلك. ألا ان الحالة اصبحت حرجة لانهُ ان كان غياب الرجال من القرية يسهل الفرار فزيادة السهر على الاسيرين تزيده صعوبة. ثم كان الخادم موقنًا ان موته قريب لا مناص منهُ لان الجنكز سوف يرجعون بصفقة خاسر فيقتلونه حتمًا فلم يبقَ له سوى الاختيار بين احد الامرين. فامّا ان ينجو بنفسه ويترك سيده واما ان يخلصه بلا ابطاء. ولكن الخادم الامين كان يفضل احتمال الف ميتة ولا يترك سيده

وكان كستنبو يئس من النجاة فوقع في حالة من الحيرة تشبه الجنون فكان يلازم الصمت لا ينبس ببنت شفة. اما ايفان فكان في فرح اعظم من ذي قبل يهيئ الطعام باعتناء فائق وهو يترنم بالحان روسية يضمنها اقوالًا يوجهها الى سيده لينشطه:

جاء الوقت المنتظر هَيْ ليلي هَيْ ليلي وقت به تخلص او تموت هَيْ ليلي هَيْ ليلي
غـدًا نسير هي ليلي هي ليلي على طريق بلدة جميلة هي ليلي هي ليلي
تشجع سيدي ان اله الروس عظيم

اما كستنبو فكان يجهل مقاصد خادمه وكان ينظر الى الحياة والموت بعين

واحدة فاجاب: افعل ما بدا لك واصمت. وعند المساء طلب الرجل المريض الانصراف لعارض طرأ عليه فلم يُمانع لان ايفان كان قد طيَّب خاطر ابراها وهدأ روعه بدعابته وممازحته. وليزيل كل اثر الارتياب من نفس السجان انفرد عاجلًا في آخر الغرفة وانطرح على سرير من خشب وتناوم وهو ينتظر ان يغلب النعاس على السجان فينام. ولكن ابراها كان قد عزم على السهر طول الليل فصرف المرأة وابنها الى الغرفة المجاورة واغلق عليهما الباب واتى وجلس على كرسي بازاء سجينه

وكان ايفان يتأمل كل شيء. من الزاوية التي كان فيها فكان يرى كلما التهبت النار فأساً معلقة على الحائط امامه تتلألأ . ثم لاحظ ان النعاس غلب على ابراها فال برأسه. فظن ايفان ان قد اتت ساعة النجاة فانتصب فأحسَّ به السجان وانتهره وسأله عن سبب قيامه فلم يجبه ايفان ولكنه اقترب من النار وهو يتثاءب كانهُ مستيقظ من سبات عميق. وشعر ابراها ان النعاس يثقل اجفانه فأمر كسكتبو ان يضرب على عوده ليطيّر النوم من عينيه. وكان القائد يمانعه فقدم لهُ ايفان العود وقال لهُ اضرب يا مولاي فان لي معك كلاماً. فاخذ القائد العود وشدَّ اوتاره ثم اخذا في الغناء وتبادلا هذا الحديث الهائل:

كسكتبو — هي ليلي هي ليلي — ماذا تريد ان تقول ؟ احذر (وكانا يقطعان محادثتهما بادوار الاهزوجة الروسية الآتية) :

الأسى يقتلني يا ربوع الوطنِ الأسى يقتلني يا ربوع الوطنِ
لا تلي همنا لا تعزي وهنا قد بكت اعيننا من فراق الوطنِ

ايفان — هل ترى هذه الفأس ؟ لا تنظر اليها . هي ليلي هي ليلي . لأشقنَّ بها رأس هذا الكلب . هي ليلي هي ليلي

دمعنا احرقنا فجلسنا زمنا ذاكرين الوطنا يا لبعد الوطنِ

كسكتبو — ما يجديها قتله نفعاً . هي ليلي هي ليلي . كيف اهرب وانا مكبل بالحديد

عين ماء سكبت في امان وبكت وهي عجماء شكت من فراق الوطنِ

ايفان — مفتاح الاغلال في جيب اللص

سكني يا مقلتي خنقني من لوعتي سوف تُجلى غمّتي في ربوع الوطنِ

كـكتبو — ستصيح المرأة فتفضحنا

غربتي تطرحهم لوعتي تفرحهم ليتني أشرهم يا فراق الوطن

ايڤان — دع الاقدار تجري. الست ماتنا ؟ هي ليلي هي ليلي. جوعاً وشقاء

وطني لم تنسكا وطني لم تنسكا روحنا تبقى لكما جسنا للكفن

ولما رأيا السجان يميزها سمعه ضاعفا الصياح والملهلة وقوي ضرب القائد على العود وقال الخادم لسيده: اضرب لحن القوزاق لارقص واقترب من الفأس لا تخف اقر قراً شديداً. قال كـكتبو: لك ما تشاء. فلعلّ هذا العذاب قريب الزوال. قال هـذا ثم التفت واخذ يضرب اللحن المطلوب فطفق ايڤان يرقص ويصيح. وجعـل القائد كلما اقترب الراقص من الفأس خفق قلبهُ قلقاً لان الآلة المطلوبة وان كانت في خزانـة لا لا باب لها غير انها بعيدة المنال لا تكاد يد ايڤان تصل اليها. الا ان الخادم انتهز فرصة مناسبة وانتشل الفأس من محلها ووضعها على الارض في ظل جسم ابراها ولما وقع نظر السجان عليه كان ايڤان قد ابتعد وهو يرقص

طال الرقص حتى اعيا كـكتبو وظن ان ايڤان لن يقدم على العمل او انهُ لا يرى الوقت مناسباً فرفع اليه بصره فرآه قد اخذ الفأس واقترب من اللص ليقتلهُ فارتعـدت فرائصهُ وارتعشت يداه وسقط العود من يده. وفي اثنائها تقدّم ابراها من النار ورمى فيها عوداً يابساً فتأججت واضاءت الغرفة ثم التفت ورجع الى مكانهِ. فاوقم ايڤان حينئذ مقصدم لمقارعة السجان وطرح الصوت وهذا ما كان الخادم النبيه على حذر منهُ. فلما رأى من اضطراب القائد ما كان ورأى السجان ينتصب وضع الفأس خلف كرسيـهِ واستأنف الرقص وصاح بسيده اضرب على العود والموت الازرق مـا حلّ بك ؟ فرجع القائد الى النقر ولم ينتبه السجان الى ما جرى وجلس ثانية غير انهُ امرهما ان يكفـا عن الغناء ويرقدا. فتقدم ايڤان واخذ بيت العود ووضعهُ على المدخنة وناولهُ القائـد العود فلم يتناولهُ الا انهُ عمد الى الفأس وضرب بها السجان على ام راسهِ ضربة هائلة اودت به ولم يتأوه فسقط ميتاً وراسه في النار فاحترقت لحيتهِ فجرّهُ ايڤان وغطاه ببساط

وكان الاسيران منصتين ليعرفـا ان كانت المرأة متيقظة. واذا بهـا وقد اعجبها السكوت الذي ولي الرقص والغناء قد فتحت باب غرفتها واقبلت عليهـا وقالت: ما لكما

ومن اين هذه الرائحة رائحة ريش محروق. وكانت النار قد كادت تنطفئ. فرفع ايفان فأسهُ على المرأة ليضربها فحولت رأسها فأتت الضربة في صدرها فصاحت وسقطت فانثنى عليها ايفان فما وصلت الشقية الى اقدام كتنبو حتى فارقتها روحها. فارتاع القائد من مقتل لم يكن في الحسبان. اما ايفان فتوجه الى غرفة الصبي فوقف امامه الماجور وقال له: الى اين تذهب يااثيم؟ أوَ تتقدم على قتل ولد لم أرَ منهُ غير اللطف والوداد. والله لئن كان خلاصي بقتلهِ فلتهلكنَّ اذا رجعنا الى روسيا ولم تجدك اماتك وخدمتك نفعاً. قال ايفان: في روسيا تفعل ما بدا لك اما هنا فلا بدَّ من تتميم مقاصدي. فجمع الماجور قواه ومسك ايفان بثيابهِ كأنهُ يريد منعهُ من المرور وقال: ان قتلتهُ او مسست شعرة من راسهِ سلّمت نفسي الى ايدي الجنكز فتصبح قساوتك بلا جدوى. فقال ايفان وهو رافع فأسهُ المتقطرة دماً: الى ايدي الجنكز. والله لا يأخذونك حياً. لاقتلنَّهم واقتلنَّك واياي قبل حلول هذا الامر. فان الولد قادر على اهلاكنا اذا صرخ وفي الحال التي انت فيها لا طاقة لك بردّ اضعف النسوة عنك. قال كتنبو: قف يا غليظ الكبد فلتقتلني قبل ارتكاب هذا الاثم الفظيع. ولكنهُ لم يقوَ على مسك الخادم من شدة ضعفهِ وثقل قيوده فدفعهُ ايفان وتخلص منهُ فسقط القائد المسكين على الحضيض وكاد يغشى عليهِ من الدهشة والغم. وبينما كان يحاول الوقوف كان يصيح: بالله عليك يا ايفان إلّا رحمت هذا البريء. ثم لما ثابت أليهِ قواه اسرع الى اغاثة الولد فما بلغ الباب حتى التقى بايفان راجعاً وقد اتم قصده. فاندفع الماجور يؤنّبهُ تأنيباً عنيفاً فاجابهُ ايفان: مولاي قد تم الامر فلا تدع الوقت يذهب سدى ولا ترفع صوتك. قد جرى ما جرى فلا سبيل الان الى الرجوع الى الوراء. ومن هذه الساعة الى ان ننجو كل رجل يعارضني فهو مائت وكل من دخل علينا فهو مقتول لا محالة رجلاً كان او امرأة او صبياً. عدوّاً ام صديقاً. واخذ ايفان اذ ذاك يطلب مفاتيح الاغلال فلم يجدها لا في جيب السجان ولا مع المرأة ولا في الاماكن التي ظن انها مخبأة فيها والقائد مع ذلك يتوجع ويتحسر غير مبالٍ بمؤنبهِ الحرج والخادم يقول له: اولى بك ان تتوجع على فقد مفتاح القيود. مالك تبكي على مثل هؤلاء الاوغاد الذين عذبوك خمسة عشر شهراً؟ قد ارادوا قتلنا فقتلتهم فما عليَّ؟ ليت الجحيم يبتلعهم جميعاً

ولما لم يجد ايفان مفتاح القيود فكر في كسرها والّا اصبحت المذبحة التي ذبحها

بلا فائدة. فاخذ الفاس وتوصل الى فك الحلقة التي حول المعصم واما الحلقة التي حول الرجل فلم يستطع فكها وخاف ان يجرح مولاه ان شدّ عليها بكل قواه. وكان الليل قد مضى منهُ شطر عظيم فاضحى. وقفهما خطراً حرجاً. فعزما على السفر دون تأخر فعلّق ايفان قيد الماجور بنطاقهِ حتى لا يعيقهُ. ووضع في كيس قطعة خاروف من بقايا عشاء البارحة. وتسلح بخنجر السجان وطبنجتهِ. والبس الماجور فروته ثم خرجا بهدو. فطافا حول البيت لئلا يلتقيا باحد ثم سارا في طريق الجبل تاركين الطريق المؤدية الى مزدك لعلمهما بان الجنكز سيطاردونهما من تلك الجهة. فسارا باقي الليل في الجبال ولما طلع الفجر دخلا غابة كانت في رأس الجبل فسترتهما عن العيون. وكان شهر شباط قد كسا الارض ثلجاً وكان الثلج في الليل وحتى الظهر جامداً فاستطاعا المشي عليهِ بلا صعوبة غير ان اشعة الشمس ليّنتهُ فجعل المسافران يغرقان فيهِ كلما خطوا خطوة. فتعسر السير وبطوء. وعند الظهر وصلا الى وادٍ عميق جرى في قعره جدول ماء على ضفته سبيل مطروق ينبيء ان المكان آهل. فعزما على الوقوف حتى يجنهما الليل خوفاً من الجنكز وراحة للماجور فلجأا الى بعض الصخور التي كانت هناك بين الثلوج فقطع ايفان اغصان صنوبر وجعلها فراشاً اطرح القائد عليهِ ليستريح. ثم جعل يتفقد المكان ليعرف وجهتهما فرأى ان لا مخرج من ذلك الوادي الا بسلوك حافة الجدول المطروقة لان جبالاً شاهقة كانت تكتنفهُ ولا منفذ فيها سوى ذلك الطريق

وكاد الليل ينتصف وقد تجمد الثلج فنزلا في الوادي وكانا قد اشعلا الاغصان حتى يتدفأا ويهيئا طعاماً كانا اليهِ في حاجة ماسة. فأكلا وشربا ماء الثلج ممزوجاً بجرعة من العرق ثم عبرا الوادي ولحسن الطالع لم يصادفا احداً فيهِ واخذا يسيران على ضفة النهر في المضيق بين الجبال الشامخة وهما يسرعان خيفة ان يفتضح امرهما ولم يخرجا منهُ الا عند الساعة التاسعة صباحاً وعندها شخص لهما عن بعد من وراء قمم جبال متداخلة في بعضها وقليلة الارتفاع برّ روسيا الفسيح الارجاء كانهُ بحر متباعد. ولا تسلْ عما خالج فؤاد الماجور من الفرح امام ذلك المنظر. روسيا روسيا تلك اللفظة الوحيدة التي خرجت من فيهِ. ثم جلس المسافران ياخذان من الراحة نصيبهما ويمتعان العين بمشهد الوطن العزيز ويفرحان بالخلاص القريب. غير ان رجاء السعادة كان يمتزج في صدر القائد بذكر الفاجعة الهائلة التي شهدها وكانت قيوده وثيابهُ الملطخة دماً لا تزال تجدده. فاخذ

ينظر الى غاية السفر ويقدّر مصاعبهُ ومشقة المسافة التي كان يلزمهُ ان يقطعها والحديد في رجله وساقاه مورّمتان من التعب. فأنساه هذا الفكر الفرح الذي شعر بهِ ورفيقهُ لدى مشاهدتهما ارض الوطن وزاد في عذابهِ عطش شديد. فنزل ايڤان الى الماء وكان قريباً ليأتيه بما يروي غليله. فوجد عليهِ جسراً مركباً من شجرتين ورأى عن بعد بيتاً منفرداً فقصده واذا بهِ مسكن للجنكز يأوونهُ في الصيف. فسرّ الخادم الامين من هذا الاكتشاف ورجع الى سيده وانتشلهُ من بحر الافكار الذي كان غارقاً فيهِ واوصلهُ الى الملجإ وجعل هو يفتش على «المخزن»

ان اكثر سكان القفقاز اقرب حال من اهل البداوة يَنزون ويُنزّون وينتقلون من مكان الى مكان ولهذا يحفرون بالقرب من منازلهم سراديب يخزنون فيها موْنهم ومتاعهم وهذه السراديب على شكل الآبار يسدّونها بخشبة او حجر كبير ويغشونها بالتراب ويجعلونها في اماكن لا عشب فيها لئلّا ينبت عليها عشب يختلف لونهُ عما حوله فيعرف السرّ. وقد يتمكن عساكر الروس من الاطلاع عليهِ مع مُما يتخذهُ الجنكز من الاحتياطات فانهم يضربون الارض بقضب بنادقهم حول البيت فيعرفون الحفر من دويّ الضربات. فتوصل ايڤان الى اكتشاف مخزن البيت فوجد فيهِ بعض سنابل الذرة وعدداً من اواني المطبخ فأوقد ناراً ووضع عليها اللحم الذي معهُ وشوى ايضاً الذرة وكان قد وجد ايضاً بندقاً فاتى بهِ فبعد ما اكل القائد تمكن ايڤان من كسر الغل الذي كان مقيداً بهِ بعدُ. فاستراح ونام نوماً هنيئاً ولم يستيقظ الّا عند العتمة. ولكنهُ لما اراد السير تعذر عليهِ المشي لان رجلاه تورمتا وتصلبتا حتى انهُ لم يستطع تحريكهما الا بعناد ووجع مؤلم ومع ذلك كان لا بدّ لهُ من السير. فاتكأ على خادمهِ ومشى حزيناً وموقناً انهُ لن يبلغ الغاية المقصودة. غير ان حرارة المشي خففت من اوجاعهِ فمضى الليل كلهُ بين سير ووقوف وطالما رمى بنفسهِ على الارض وطلب الى رفيقهِ ان يتركهُ وحده. اما ايڤان فلم يكتفِ بتشجيع القائد بل كان يحملهُ او يجره جرّاً. وبقيا على هذه الحالة حتى وصلا الى مجاز عسر عليهما عبوره. فوقفا حائرين يتساءلان اينتظران النهار ام يواصلان السير فلما رأيا ان في انتظار النهار تأخيراً لا يُعوَّض عزما على المرور مع ما وراء ذلك من خطر التدهور. ولكن الخادم اراد ان يرتاد المكان قبل مرور سيده فاخذ ينزل وكسكتبو ينتظر على حافة الصخر في اضطراب لا يوصف. فكان الليل مظلماً وكان

يسمع خرير الماء يجري في الوادي تحت رجليهِ ودوي الحجارة تتدحرج تحت اقدام خادمهِ فتسقط في النهر وتُعلِم القائد بعمق الهاوية. ففي تلك الساعة المحزنة تذكر امَّهُ وكانت قد باركتهُ قبل سفره فانتعش ذكرها فؤاده وشعر بعاطفة الرجاء تنبثق من قرب الملتقى فصاح: ربَّاه باركتني فاجعل بركتها خلاصي. فما انتهى من صلاتهِ الحارَّة حتى رجع ايفان واعلمهُ ان النقب ليس من الوعورة في الدرجة التي توهماها فنزلا بين الصخور حتى وصلا الى صخر ضيق ومنحنٍ نحو الهاوية وعليهِ بساط من الثلج زلق ففتح ايفان بفأسهِ طريقًا في الثلج. ثم رسما اشارة الصليب وخطا كبكبو وهو يقول: ان مُتُّ فلا يكوننَّ موتي من ضعف العزيمة. لقد اوهنتها الامراض ولكني لامشينَّ الآن ما قدَّرني الله. وقطعا المزلقة دون عناء زائد. واستأنفا المسير. وكانت الطرق قد تسهلت وتحسنت وخلت من الثلج ولم يلاقيا احدًا حتى طلوع الفجر. فلاح لهما حينئذٍ عن بعد رجلان فتسطحا على الارض حتى يتواريا عن اعينهما

خرجا من تلك الجبال فاصبحت الاراضي جرداء لا غابة تكسوها بل ولا شجرة تنبت فيها الا على شواطئ الانهر الكبيرة وهو امر يقضي بالعجب لخصب التربة في تلك الاماكن. وكان المسافران يسيران على ضفة نهر الصونجا وكان لا بُدَّ من قطعه حتى يتمكنا من الوصول الى مزدك. وانهما ليطلبان لهما مخاضة اذ رأيا فارسًا يقصدهما فلجأا الى شاطئ النهر واختبأا وسحب ايفان خنجره ودفع الى سيده طبنجته وانما قصدهما المدافعة عن نفسهما اذا تعرَّض لهما الفارس. فلمَّا اقترب منهما عرفا انهُ غلام يناهز الثالثة عشرة من عمره. فهجم عليهِ ايفان ومسكهُ من عنقه ولوى بهِ فجندلهُ على الارض فاراد ان يدافع عن نفسهِ ولكنهُ لما رأى الماجور يقصده وبيده الطبنجة ركن الى الفرار وكان الفرس بلا سرج وفي فمهِ رسن يقوم مقام اللجام. فاستعان المسافران بهِ ليقطعا النهر وكان ذلك من حسن طالعهما لانهما لولاه لما استطاعا ان يعبرا. فركباه وخاضا في المياه وقد كادت تجرّ الفرس بشدة سيلها غير انهما وصلا سالمين الى الشاطئ الثاني واذا بعالٍ واقف لا يستطيع الفرس ان يصل اليه فنزلا ليخففا عنهُ وجعل ايفان يسحبهُ بعنف ليصعده على الارض فانقطع الرسن وجرَّت المياه الفرس فاختبط وحاول الطلوع فلم يقدر فغرق. فأثَّر فيهما فقدانه غير انهما اطمئنا بالًا لما فكَّرا ان ما من احد

يستطيع اللحاق بهما فقصدا هضاباً عليها صخور متفرقة ليختبئا فيها حتى الليل وياخذا نصيباً من الراحة

ولما قدّرا المسافة التي قطعاها عرفا حدساً ان منازل الجنكز الموالين للروس غير بعيدة غير ان الاتكال على هؤلاء القوم ضرب من الجنون اذ لا يؤمن غدرهم وعلاوة على ذلك كان كسكتبو في حالة من الضعف تمنعهُ من بلوغ نهر التراك بلا مساعدة. وكان قد نفد ما لديهما من الطعام فقضيا النهار في سكوت افصح من الكلام لا يجسران على مبادلة افكارهما وعواطفهما . وعند المساء رأى القائد خادمه يعضّ اصبعه وهو يتأوّه كأنهُ يتندم

فتعجب من علائم اليأس التي ابداها ايڤان لاول مرة منذ سفرهما فسأله عن سبب ذلك فقال ايڤان : مولاي اتيت غلطاً فظيعاً . فقال الماجور : سامحك الله . ورسم على صدره اشارة الصليب . فاردف ايڤان : قد نسيت يا سيدي ان اخذ القدّارة المعلقة في غرفة الصبي . ولكن لم يسنح هذا الفكر في خاطري فان نوحك وبكاءك منعاني من التبصر في الامر . . اراك تهزأ . لعمري انها لاحسن قدارة كانت في القرية كلها وكنت اهديها لاول من نلقاه من الجنكز للشياة وتجعله لنا صديقاً . فاني لا ادري كيف يمكننا ان نكمل طريقنا في الحال التي انت فيها

واذ ذاك تغيرت السماء وجعلت ريح روسيا الباردة تعصف وبرد دقيق يتزل عليهما فسافرا عند المساء وهما لا يدريان ايهما اولى ان يمرّا ببعض القرى او يبتعدا عنها . وفي اخر الليل طرأ عليهما عارض تعذر معهُ قطع المسافة الطويلة التي كانت باقية عليهما لو ابتعدا عن الاماكن الآهلة . فبينما كانا يقطعان على الجليد المغطى بالثلج خندقاً صغيراً انكسر الجليد وسقطا في الماء حتى الركبتين فتبللت ثياب الماجور . وكان القر شديداً والارض كلها مغطاة بالبرد الدقيق فمشى كسكتبو على هذه الحالة ربع ساعة ثم وقف ورمى بنفسه على الارض خائر العزيمة يائساً من الوصول ورأى انهُ من القساوة الوحشية ابقاء ايڤان معهُ وهو قادر على النجاة فقال لهُ : يا ايڤان . يشهد الله اني الى الان لم آلُ جهداً في استعمال اسباب النجاة التي مددتها لي وقد اصبحت الان بلا جدوى لاني عاجز عن الاستعانة بها . فاذهب الى « الخط » يا عزيزي وارجع الى الايك هذا امري . وقل لخلاني ورؤسائي انك تركتني هنا مطعماً للغربان واني اتمنى لهم

نصيباً خيراً من نصيبي. ولكن قبل ان تتركني تذكر قسمك اذ كنت تسبح في دم اعدائنا. حلفت ان لا تسمح للجنكز ان يمسكوني حياً. فبرّ بقسمك. قال هذا وامتد على الارض وتغطى بفروته. فاجابهُ ايفان: لدينا بعد وسيلة وهي ان ندخل على احد الجنكز ونسترضيه بالمواعيد فان غدر بنا لم يعد علينا لوم. فاجهد النفس في الوصول الى المساكن. ولما رأى سيده صامتاً قال: ان الاولى ان اذهب وحدي واحاول استمالة بعض الجنكز فان نجح مسعاي رجعت واياه لاخذك وان لم ينجح وهلكت فدونك الطبنجة. فاخرج كسكنبو يده من تحت الفروة واخذها. فغشاه ايفان ببعض الاعشاب لئلا يراه احد واستعد للمضي فناداه كسكنبو: يا ايفان اسمع طلبتي الاخيرة. ان عبرت نهر التيرك والتقيت بأمي دوني... فقاطعهُ ايفان قائلاً: مولاي سنجتمع في النهار ان شاء الله وان متّ انت فلا امك تراني ابدًا ولا أمي. قال هذا وسار حثيثاً

وبعد ساعة رأى قريتين او ثلاثاً من بعد ثلاثة اميال تقريباً وكان قصده ان يجد بيتاً منفردًا ليدخله دون ان يراه احد فيجعل صاحبه رهين مواعيده. فرأى دخاناً متصاعدًا فوق بيت وجده كما يشتهيه. فركض اليه ودخل. فوجد صاحب المنزل جالساً يرقع خفاً له فقال: اني اتيت لاعرض عليك مكسب مئتي روبل واطلب منك حاجة. سمعت بلا شك بما حدث للماجور كسكنبو سجين سكان الجبال فانا خلصتهُ وهربت به خفية وهو الآن مريض بالقرب منك وفي قبضتك. فان ارجعتهُ الى اعدائه شكروا لك فعالك ولم يجازوك. وان اردت ان تنقذه وتضيفه ثلاثة ايام فقط ذهبتُ الى مزدك واتيت اليك بالقيمة المذكورة فداء عنهُ. اما إن ابديت حراكاً لتنادي فلاقتلنّك لا محالة. فأجب والا... قال هذا واستلّ خنجره

فاقنعت لهجة ايفان الجنكزي ولكنها لم تخفه. فدفع الخف من يده وقال بكل سكينة: يا شاب ان في نطاقي مدية ايضاً. وليست مديتك لترهبني. فلو دخلت عليّ مسالماً لما فكرت ابدًا بتسليم رجل وطأ عتبة بيتي. اما الان فلا اعدك بشيء.. فاجلس وقل حاجتك. ففهم ايفان ان صاحبه من ذوي المروءة. فاغمد خنجره وجلس واعاد ما عرضه عليه اولاً. فقال له الجنكزي: وما يضمن لي انك تفي بوعدك. قال ايفان: أودعك الماجور نفسه رهينة صدقي. أو تظن اني ذقت امرّ العذاب خمسة عشر شهراً واني اتيت بسيدي اليك لاتركه. قال الرجل: قد صدقتك. لكن المال قليل فضاعفهُ. اجاب ايفان

ولِمَ لا تطلب عشرة اضعاف ؟ ليس في الطلب عناء . انما انا رجل اني اذا وعدت . وعدتك بمئتي روبل لا غير لاني قادر على ادائها . اوترضى ان اخدعك لن وعدتك باكثر من ذلك . قال الجنكزي : قبلت فاذهب وارجع وحدك بعد ثلاثة أيام . قال ايڤان : بعد ثلاثة أيام ارجع وحدي هـذا وعدي . وانت اقسم لي ان الماجور ضيفك . قال : اقسمت انك ضيفي والماجور ايضاً من الساعة . فتصافحا وركضا وجاءا بالماجور وقد كاد يموت برداً وجوعاً

امّا ايڤان فلم يذهب الى مزدك بل الى مدينـة اخرى اقرب منها كان قد علم ان فيها عسكر كثيف نجمع بلا عناء المبلغ المطلوب فان بعض القوزاق كانوا في الموقعة التي أُسر فيها الماجور فجمعوا المال جذلين وسافر ايڤان بالدراهم في اليوم المعين ليخلص سيده غير ان ميرالاي الحصن لم يأذن له بالرجوع وحده خوفاً ان يغدر به الاعداء ثانيةً . فاصحبهُ بعض الكمية خلافاً للعهد الذي كان أعطاه الجنكزي . وقد كاد هذا التحفظ الزائد يودي بحياة كسكتبو . لان صاحب البيت لما رأى عن بعد رماح الفرسان الروس ظن الظنون وحسب الخادم خائناً فحمـل القائد على سطح بيته وربطهُ بعامود ووقف امامه مصوباً اليه غدارته وصاح بايڤان حين اقترب منهُ : والله لئن خطوتم خطوة لأَقتلنّ القائد فلديَّ من الرصاص ما يكفي لقتل خمسين رجلاً والخائن الذي يقودهم

فصاح ايڤان مذعوراً خائفاً على سيده . لم نخنـك ولم نغدر بك . الزموني بالرجوع مصاحباً وقد اتيت بالمئتي الروبل وفيت لك بالوعد

فاجاب الجنكزي فليبتعد العسكر والّا اطلقت النار . فطلب ايڤان الى الضابط ان يبتعد ثم رجع وحده الى صاحبه ولكنهُ لم يسمح له بالتقرب منـهُ لشدّة خوفه فالزمه ان يعدّ المال عن بعد وينصرف . فنزل وقبضه ورجع الى السطح . فانطرح على اقدام كسكتبو وطلب منـهُ العذر على معاملته القاسية وقد اضطر اليها صيانةً لحياته . فاجابهُ الماجور : لست بذاكر سوى اني ضيفك وانك لم تنكث العهد ولكن فك قيودي قبل الاستغفـار مني . غير ان الجنكزي لمّا رأى ايڤان راجعاً قفز عن السطح وغاب كالبرق

وفي اليوم عينه اوصل ايڤان سيده الى ما بين اصحابه وقد طالما يئسوا من الالتقاء به . فحدّث عن فرح العبد الامين وفخره ولا حرج

المدارس والهيئة الاجتماعيّة

للاب خليل اذّه اليسوعي

قيل ان احداث اليوم رجال الغد ونعم القول لان الرجال لا تخلق رجالاً انما تصير رجالاً بالتعليم والتهذيب. ولذلك يمكن القول ايضاً: ان طالب اليوم وطنيّ الغد. وكما تكون المدرسة كذلك تكون الهيئة الاجتماعيّة لان المرء يستعد لخدمة الوطن في المدرسة. فاذا فسدت المدرسة والتربية فسدت الهيئة الاجتماعيّة واذا حسنت كان الامل وطيداً في حسن احوال المملكة ونجاحها. ولذلك يسرنا ان نرى الادباء مقبلين على المباحث التعليميّة والتهذيبية. لكنّا نخشى ان تسوقهم الآراء السائرة في بعض المؤلفات او على ألسنة بعض الخطباء الى حيث لا يريدون. فان بعض الكتبة او المتكلمين لمّا رأوا كثرة المذاهب في بلادنا وما بينها من التنافر والتزاحم وكانوا يرغبون في توحيد الكلمة خيرًا للبلاد وصيانة للوطن ظنوا ان السبيل الى ذلك انما في التعليم او التهذيب اللاديني اعني الذي ليس للدين فيه تداخل وربما انقادوا الى هذا القول بمطالعة تآليف اوربيّة لم يتوصلوا الى تمييز غثها من سمينها. فلو ساد هذا القول لكان ضربة قاضية على البلاد ولأصبح الدواء شرًّا من الداء ولآل مسعى هؤلاء القوم الى هلاك ما يريدون احياءه وهدم ما يريدون بناءه اعني به الوطن. لان الوطن بلا دين لا يقوم والوطنيّة لا تنبت في ارض لم يحيها الدين او إن نبتت لم تأتِ بالثمار اليانعة التي يشتهيها كل محب لخير بلاده. وعليه اذا اردنا ان ينشأ احداثنا على حب الوطن الصادق فلا بدّ من تهذيب عقولهم وقلوبهم على مبادئ الدين الصحيحة. لانها وحدها تضمن لنا صدق الوطنيّة وثباتها وقوتها ولا عجب لان الدين وحده يعلم الانسان واجباته كلها تعليمًا كاملًا فعّالًا ثابتًا لا يضعف نوره ولا يحتجب ولا ينطفئ مهما ادلهمّت الظلمات وعصفت العواصف. وهو وحده ايضاً يقوي العزائم ويمكنها من انجاز ما يقتضيه خير الوطن ولو اشتدت عليها الاحوال ولو استوجبت بذل الاموال وتضحية الارواح

هذا ما اردنا ايضاحه لمواطنينا لئلا ينخدعوا بظواهر الحقيقة فينقادوا الى الباطل مع ما في الصدور من سالم النيات وشريف النزعات فيؤدي بهم الضلال الى خراب البلاد لا الى عمرانها

*

نقول اولًا ان الدين وحده يعلمنا واجباتنا للوطن تعليمًا كاملًا فعّالًا ثابتًا

امّا انّه يعلمنا ما يقتضيه منّا الوطن فلا يكاد يحتاج الى برهان لان الدين يعلّمنا ما يجب علينا لله مؤسس الهيئة الاجتماعيّة وللناس اعضاء هذه الهيئة فان عرفنا هذه الواجبات حق المعرفة عرفنا كل ما يقتضيه منّا الوطن لان الوطن ليس سوى هيئة اجتماعيّة مستقلة مالكة على ارض معينة تدير شؤونها كما تشاء. يقول لنا الدين: « لا يكن لك اله غير الله. اياه وحده تعبد وله تسجد. كن خاضعًا للسلطة الشرعيّة لان السلطة من الله. ولا تنسَ ان الله اولى بان يُطاع من الناس ». ففي هذه الوصايا صورة الواجبات للسلطة المدنيـة. خضوع واكرام مهما كان الرئيس لان الخضوع والاكرام واجبان لممثل الله. خضوع بلا تذلل لان الخضوع لا يؤدى لانسـان بل لله في شخص الانسان. خضوع ممزوج باستقلال الضمير. محدود بحقوق الله عزّ وجل بحيث لا يعود جائزًا او واجبًا اذا خرق الرئيس حرمة الشريعة الالهيـة طبيعيةً كانت او وضعيّة. لان الرئيس اذا امر ما يخالف وصايا الله لا تحق له الطاعة من مرؤوسيه لان امره لا يصدر حينئذٍ عن السلطة التي خوله الله اياها بل عن ارادته الذاتية. وارادة الانسان مهـما كانت لا قوة لها لالزام احد لان الله وحده مصدر القوة الالزامية التي في الواجب. فما اشرف هذا الخضوع الذي يأمر به الدين. فاذا تمّ جمع بنوع عجيب بين الرأس والاعضـاء. بين الرئيس والمرؤوسين. وهو امر لا بدّ منهُ لحياة الهيئة الاجتماعيّة كما انهُ ضروريّ لحيـاة الجسم البشري

يقول لنا الدين: « اكرم اباك وامك. لا تقتل. لا تزنِ. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تشتهِ امرأة قريبك ولا مقتنى غيرك. احب قريبـك كنفسك. وكل ما تريد ان يفعل الناس بك فافعله انت بهم ». ففي هذه الوصايا لائحة واجبات الانسان لقريبه اي لكل انسان سواه. فاذا روعيت تم نظام الهيئة الاجتماعية واتحاد اعضائها فيما بينهم لان في حفظ هذه الوصايا قوام العائلة. وصدق المعاملة. والوفاء بالعهود. وطهارة النفس. وصحة الجسد. ونشاط الهمّة. ومحاشاة الحسد. واجتناب الطمع المضر. وحب الاحسان والغيرة على مصالح الغير وهلمّ جرًّا. فهذه الفضائل هي لعمري كلها فضائل اجتماعية اذا توفرت في الجسم الادبي كان صحيحًا قويًا كاملًا عاملًا بما تستوجبه منهُ طبيعته. قادرًا

على بلوغ غايته وهي السعادة في هذه الدنيا على ما رتبهُ وقسمهُ له الله . هـذا ما بيّنهُ موضحاً العالم الاقتصادي الشهير لي بلاي (Le Play)

كان ذاك الرجل العظيم في اول امره مبتعدًا عن الديانة غير انهُ كان ميالًا الى عمل الخير ومنفعة مواطنيه . فاخذ يبحث في الوسائل الفعّالة لتنظيم الهيئة الاجتماعية واصلاحها فتوصل بطريقة علميَّة الى اكتشاف في غاية من البساطة وهو ان اساس الاجتماع البشري واصل رقيه في مدارج العمران حفظُ وصايا الله . فلا يقوم بناء خارجًا عن هذا الاساس ولا تحيا جمعيَّة بشريَّة ان لم تسر اليها الحياة من هذا الاصل . وكان هذا الاكتشاف سبب رجوعه الى ديانة عرف فائدتها العظمى وضرورتها القصوى . فاذا كانت وصايا الله قانون الوطنيَّة الصادقة اذا صحَّ ان الدين يعلمنا ما يجب علينا للوطن

ولا تكتفي الديانة بتعليم كل ما هو واجب تشييده لعمران الوطن بل تسعى كل السعي لابعاد العقبات التي تحول دونه . ما هو عدو الوطنيَّة الالدّ ؟ لا شك انهُ حب الذات المفرط او الانانية لانهُ يحملنا على ايثار صالحنا الخصوصي على الصالح العمومي في كل ظرف ومكان ويجعل همنا الوحيد وشغلنا الشاغل توفير اسباب الراحة والرفاهية غير مبالين بخير القريب . فهذا الخطأ الفاحش والسم القاتل لكل عاطفة وطنية قد نبذه الدين وردَّهُ ما استطاع فان الكل يعرفون ان اساس الكمال المكفر بالذات اعني مقاومة حب الذات المفرط لانهُ عدو لكل فضيلة وبالتالي للوطنيَّة . فترى ان في الدين نورًا باهرًا يضيء في فلك العقول ويهديها على محجة واضحة الى اسمى درجات الوطنيَّة

وهذا النور هو ثابت لا تستطيع ظلمات الشهوات اطفاءهُ لانهُ صادر لا عن ارادة الانسان ولا عن حكمته القاصرة لكنهُ منبعث من كلام الله الذي لا يزول وان زالت الارض والسماء . كتب موسى النبي هـذا القانون قانون الوطنيَّة الصادقة على لوحي الشريعة لمَّا كان يكلم الله في طور سيناء وهـذان اللوحان لم تمحهُما يد وان حاول كسرهما اعداء الدين منذ الوف اعوام . فهما باقيان وكلام الله باقٍ فيهما او بالحري هو الآن مطبوع في القلوب باحرف ناريَّة لن تنالها يد الكفر ابدًا

وهـذا النور لطيف جاذب يجلي في العين والقلب كنور الكواكب في ليلة صافية فانها تضيء فوق رؤوسنا وتستميل اليها قلوبنا كأنَّ بينها وبيننا علاقة سريَّة . وعلى هذا المثال تجد التعليم الديني . ليس تعليمًا فلسفيًا مجردًا يرضي العقل ولا يبلغ القلب انما هو

تعليم مياني فيه قوة جاذبة خفية · يكفي تشخيصه للنفس الطاهرة المجردة عن الغايات الاثيمة حتى تميل اليه بكل قواها · ولا عجب لان من خلق الانسان هو الذي نطق بالوصايا ليكون له فيها صلاحه فجعل بينه وبينها علاقة روحية وميلاً طبيعياً ليدركها ويمشي بموجبها وهو مع ذلك مطلق الاختيار كما انه جعل في كل حيوان غرائز طبيعية تحمله الى كل ما فيه خيره

ورب معترض يقول: « لا ننكر ان الوصايا قانون الوطنيَّة الصادقة والمدنيَّة الصحيحة ولكننا يمكننا ان نعلّم مضمونها دون التجاء الى الديانة » · تلك لعمري لامنيَّة طالما علّل بها الملحدون انفسهم وانفس من يصغون اليهم وقد شقوا الروح لبلوغها فرجعوا بصفقة خاسر ولا بدع فان من طلب المحال رجع بما رجع به حنين · لان الوصايا الادبيَّة لا تنفصل عن واضعها وهو الله عزَّ وجلَّ والا لما كان لها قوة الزاميَّة ولخرجت عن ان تكون واجبة وقد بيّن المشرق ذلك مطولاً (السنة ٧ : ٨٣٤) فطالعهُ

وعليه فعبثاً تقول للولد اكرم اباك وامك ان لم تردف وتقل: هـذا امر الله · والا اجابك الولد ان كان فيه روح الاعتقاد السائد الآن: ولمَ اكرم ابي وامي · فان كانا علة وجودي فمتى طلبت اليهما ان يوجداني · وان احسنا اليَّ فإن انا رأيت اكرامهما غير موافق لصالحي او لذتي الآن فمن يجبرني · وقس عليه باقي الوصايا · وقد جاء الاختبار مؤيداً لصحة مقالنا · هذا التعليم في فرنسا · فقد ارادت الشيعة القابضة على زمام الاحكام نزع الصبغة الدينيَّة عنهُ وهي تدّعي مع ذلك المحافظة على الآداب لعلمها بان الهيئة الاجتماعية اذا فسدت الآداب تتلاشى وتصبح في حالة الهمجيَّة · فما كانت نتيجة نزع التعليم الديني من المدارس العموميَّة سوى ازدياد الجرائم بين الاحداث بنوع هائل · واليك بعض الاعداد مأخوذة عن لوائح وزارة العدلية فانها افصح من الخطب السهبة

في سنة ١٨٤٠ كان عدد المجرمين الذين عمرهم بين السادسة عشرة والحادية والعشرين ٨٠٠٠ فاصبح في سنة ١٨٩٢ اي عشر سنين بعد انشاء المدارس اللادينية يتراوح بين ٣٠,٠٠٠ و ٣٢,٠٠٠ واكثر وذلك بدون حدوث زيادة تذكر في عدد الفتيان

في سنة ١٨٨٢ سنة انشاء المدارس الكفرية كان عدد المجرمين الاحداث ممن لم يبلغوا بعد الحادية والعشرين ١٦,٠٠٠ فاصبح عشر سنين بعدها ٦١,٠٠٠

في سنة ١٨٧٥ كان عدد المنتحرين من الفتيان الذين بين السادسة عشرة والحادية والعشرين ١٦٨ فاصبح ٥٢٩ في سنة ١٨٩٦ و ٧٨١ في سنة ١٩٠٠ · وبين الاولاد الذين دون السادسة

عشرة كان معدل الانتحارات ٣٥ في سنة ١٨٧٥ فاضحى ٧٨ في سنة ١٨٩٦ و١٢٠ في سنة ١٩٠٠

فهذه الارقام ناطقة لا تحتاج الى تذييل · تشهد ان الجرائم بين الاحداث لزادت اربعة او خمسة اضعاف عمّا كانت من يوم انشاء المدارس الكفرية ولولا خوف الاطالة لجئنا بكلام القضاة والمحامين والوزراء ومديري السجون والكل يقرّون بهذه الزيادة ويعترفون ان سببها سوء التربية والتهذيب في المدارس

وبما اننا نتكلم عن الوطنيّة خصوصاً يحسن بنا ان نبين بالاختبار ما آلت اليه هذه الفضيلة عند اصحاب التعليم الكفري · لمّا حاول جول فري وبول برت واصحابهما طرد الله من المدارس سنة ١٨٨٢ قالوا ان الوطنيّة تنوب منابه وانها العقيدة الوحيدة التي تجمع قلوب كل الفرنسيس وتوحد الامة · فاجابتهم الحوادث وكان جوابها « اللاوطنيّة » فان الكل يعرفون النهضة الاثيمة التي تسعى الى ملاشاة الوطنيّة في فرنسا · وان اصحابها وحاملي لوائها ارباب العلم وكبار المعلمين ممن كلفتهم الدولة بتهذيب الاولاد · فقد نزعوا عنهم ربقة التعليم الديني فآلت بهم سفسطتهم الى انكار الوطن والوطنيّة حتى قال احد زعمائهم هرفه (Hervé) انهُ يود لو يرمي راية فرنسا على مزبلة وليس هذا شأن بعض الافراد فانهم الوف هذه افكارهم قالوا (في مجلة التعليم الابتدائي ١٩٠٤) يخاطبون وزير المعارف انهم ٣٠,٠٠٠ وانهم غداً يصبحون ٨٠,٠٠٠ ولا نستغرب امر هذه النهضة لان التاريخ يثبتنا ان ترك الله يهوي بصاحبه الى ادنى دركات الضلال ومن اراد زيادة ايضاح فعليه بتاريخ الفلسفة يجد من الحماقات انواعاً والواناً

اذاً لا يمكن الاستغناء عن الديانة لتعليم الاحداث واجيائهم الوطن تعليماً كافياً فالديانة وحدها كما قلنا تحيي الوطنيّة وتنتيها من لفحات الاضاليل وتحميها من حملات اللاوطنيين · وهناك فئة اخرى لا تريد الاستغناء عن الدين في التعليم والتهذيب ولكنها تريد فصلهما بحيث يكون الدين على قولهم معتزلًا في معابده ولازماً الحيادة لا يتداخل في التعليم بل يترك للمعلم مطلق الحرية ليثقف عقل الولد كيفما شاء · هذا مذهب حاول اعداء الدين نشره في اول امرهم لمّا كانوا بعدُ ضعفاء يخافون المجاهرة بفاسد مقاصدهم وشرّ غاياتهم · ولكن الكنيسة كانت ساهرة فعرفت المكيدة ونبهت اليها خواطر ابنائها ورذلت المدارس المسماة « حيادية » (neutres) لادّعائها الحيادة في امر الدين ·

والسبب في ذلك ظاهر لان عزل الدين عن التهذيب مستحيل . فكيف يمكن الاستاذ ان يشرح شعرًا او خطابًا او حادثًا تاريخيًا او ان يصلح فرضًا من فروض تلامذته دون ان يميّز الخطأ من الصواب والباطل من الحق . فاذا فعل فلا مندوحة عن مبادئ او اصول ادبيّة يستند اليها لبيان الحقيقة ودحض الباطل . اما هذه المبادئ فلا تخلو ان تكون اما مطابقة للدين او منافية له ولا ثالث في الادبيات او في الاوليات الفلسفية فلا يخرج التعليم اذًا من ان يكون موافقًا للدين او معاديًا له . واذا اراد المهذب ان يروض اخلاق تلامذته فبأي الوسائل يتذرع ؟ كيف يبين للولد خطأه وكيف يحثه على اصلاحه ؟ فقد قلنا ان الادبيات لا تنفصل عن الدين والّا فقدت قوتها وباتت مضعضعة لا اساس لها ولا اصل . فان كانت مبادئ ادبياته مطابقة للدين ومستندة اليه كان التهذيب دينيًا والّا كان معاديًا . فترى ان التعليم والتهذيب لا يكون الّا دينيًا او معاديًا للدين . واما لزوم الحيادة فيه فذاك اكذب من الآل واخدع من السراب .

ولقد أتت الحوادث مطابقة للمبادئ هنا ايضًا ففي فرنسا مثلًا كل المدارس التي زعمت في اول امرها انها حيادية اصبحت الآن كفريّة

لمّا حذفت من لوائح التعليم واجبات الانسان لله سنة ١٨٩٤ نشر احد زعماء التعليم وهو اليوم مدير مدرسة المعلمين في مقاطعة السين في مجلة التعليم الابتدائي (٢٥ تشرين الاول ١٨٩٤) مقالة جاء فيها : « من لا يؤمن بالله لا يستطيع ان يعلم ما هو الله . والحال اين المعلمون والمعلمات الذين يؤمنون اليوم ايمانًا صادقًا ثابتًا ؟ يمكن القول دون مبالغة ان المدارس العموميّة منذ ١٨٨٢ هي مدارس بلا دين ولا يُستثنى من هذا الحكم الّا عدد قليل منها » فاذا كانت هذه الحالة في سنة ١٨٩٤ فما عساها تكون اليوم

وقد اقر اصحاب التدريس ان المدارس الحيادية غير ممكنة . قال المسيو بومبار وهو من كبار موظفي المعارف : « لا يمكن ترجمة او شرح صفحة من ديوستين او تاسيت او بسكال دون الانحياز الى حزب من الاحزاب . فلا يمكن لزوم الحيادة بين الحق والباطل ولا بد لساقة الشعب ان يبوحوا بمعتقدهم ويوضحوا الطريق التي يمشون عليها »

فالكل اذًا يجمعون ان المدرسة لا يمكن ان تلزم الحيادة في امور الدين وعليه ان لم

تكن مؤاخية للدين فهي بلا شك معادية له . ولما كان الدين واجباً للوطنيّة الصادقة فالمدارس الدينية واجبة لبثّ مبادئها وتعليم اصولها

*

لا يتم برهاننا ألا اذا بيّنا ان الديانة وحدها تمكن العزائم من تتميم الواجبات للقريب والوطن

ان معرفة الواجب ولو كانت كاملة لا تكفي لتحمل الانسان على العمل به . تلك حقيقة راهنة تختبر صحتها كل يوم فكم من عقل صائب يدرك الامور وهو مع ذلك واهي القوى ينوي ولا ينجز يعزم على العمل ولا يأتي عليه . وذلك لان قوى الانسان مختلفة فالعقل غير الارادة والارادة غير القوة الفاعلة . ولا بد من هذه كلها للعمل . وعليه اذا استنار العقل فقط بقي الانسان في مكانه لا يتحرك للعمل ولذلك لا افهم كيف يزعم بعض الكتبة ان العلم كافٍ لممارسة كل خير وصلاح

فاذا كان الامر كذلك أفتجد النفس في الدين قوة لتتميم ما يدلها عليه العقل ؟ لا ريب في ذلك

اولًا ان الدين يجذب قلب الولد لتتميم واجباته بزرعه فيه حب الله ومخافته ورجاء نواله . ولا مشاحة ان الحب والخوف والرجاء من اشد العوامل الطبيعية التي تتنازع القلب البشري وتديره في كل حركاته وسكناته . فكم بالحري ان كانت فائقة الطبيعة اي ان كان موضوعها الله ابانا وديّاننا وجزاءنا فهي بلا شك تقوى على دفع هجمات الاميال السيئة وكبح جماح الشهوات الرديئة وحمل النفس على الفضيلة . ولا اعتبار لقول من يدّعي ان خوف الله والرجاء بنواله مما يحط بشأن الانسان لان الانسان ليس ملاكاً انما هو حيوان ناطق وبما انه حيوان يشارك الحيوان في طبيعته فيحتاج الى خوف ورجاء ليسير على محجة الفضيلة سيرًا دائمًا بلا توانٍ ولا التواء فان كلمة الكتاب المقدس لم تزل ولن تزال عين الصواب : رأس الحكمة مخافة الله . فاذا زدت على المخافة والرجاء حبّ الله اصبت من الولد كل ما تريد من الصلاح لان الحب لاسيما حبّ الله قادر على كل شيء

ثم اذا بلغ الولد وهاجت فيه الاميال السيئة احتاج الى اسعاف اعظم وقوة اقدر لان الميل الى الدنيا يضعف الهمة ويوهن القوى . فتقدم له الديانة وسائل فعّالة كالصلاة

وباقي الاعمال التقوية . فاذا تسلح بها الحدث انتصر على اعدائه وقام بواجباته مهما اشتدت عليه التجارب . هذا ما نشاهده يومياً في مدارسنا فانا نرى في الولد والشاب التقيين استعداداً لبذل كل نفيس عند الحاجة للقيام بما يطلبهُ الله . والعكس بالعكس فان من اهمل هذه الوسائل وهنت قواه وعجز عن اتمام اسهل واجباته . وان طلبت شاهداً آخر فعليك بالتأمل في المشروعات الخيرية العظيمة الموجودة في الدنيا . من يقوم بأعبائها ؟ اصحاب الدين من رجال ونساء وشبان وفتيات . قوم تركوا ملاذّ الدنيا وراحتها ليخدموا الفقير والعليل والجاهل والعاجز وكل مضروب بالعاهات . أتعرف آفة لم يبذلوا وسعهم في ازالتها او تخفيف وطأتها ؟ هذا الاب داميان حبس نفسه مع البرص اعواماً حتى اصيب بدائهم ومات بعد ما اكل الدود اعضاءه واماتها امام عينيه . هؤلاء المرسلون يذهبون الى الاصقاع الافريقية ليمدنوا المتوحشين في اقاليم معدل العمر فيها للاوربي ثلاث او اربع سنوات . وامثال هؤلاء كثيرون تراهم حتى في مدينتنا . أتعرف خدمة للهيئة الاجتماعيَّة والوطن اعظم منهم وانفع ؟ فمن قواهم ؟ من مكنهم من هذه الاعمال السامية التي لم تعرفها الوثنية ؟ سألهم يجيبوك بصوت واحد ان الديانة وحدها الهبتهم وهي وحدها قوتهم ولولاها لما استطاعوا امراً . فاذا مكّنت الديانة الانسان من الاعمال السامية الكاملة أفما تقوى على الاعمال البسيطة المفروضة على العموم ؟

وان اردت زيادة فقابل بين ذوي الدين وذوي الكفر . اين فضائل هؤلاء الشخصيَّة ؟ اين اعمالهم المبرورة ؟ اين تضحية الذات ؟ اجل يكتبون المقالات الرنانة في حب الانسانية وضرورة التعاضد وربّما دفعوا شيئاً من المال ان كانوا من اهل الثروة . واما ملاذهم واما راحتهم واما حياتهم فهيهات ان يضحوها في منفعة القريب وخدمته

ثبت اذًا ان الديانة وحدها امّ الوطنيَّة الصادقة فمن اراد بث هذه العاطفة الشريفة وحفظها وانماءها فعليه بتربية الاحداث تربية دينية . ومن اهملها وادَّعى انهُ ديّن فقد ضل الطريق السواء . وبودنا لولا الاطالة ان نورد هنا اقوال العلماء وائمة الكتاب ولكن فيما ذكرناه كفاية لمن تبصر . وعليه لا يسعنا الَّا التحسر حينما نرى صاحب كراسة حديثة طبعت في الاسكندرية يقترح على مواطنيه لائحة الاصلاحات التي يراها ضرورية ويسهب في الكلام عن التعليم والتهذيب ويغفل امر الدين كأنهُ امر عرضي بل ينسى اسم الله سبحانهُ فانهُ لم يذكره سوى مرة واحدة وذلك عرضاً ليحث

كل ابناء الوطن على نبذ المسائل الدينيّة ظهريًّا ليهتموا بتعزيز الوطن وهو لعمري وهم وخيم العاقبة اذ حياة الوطن بحياة الدين

*

ولعلّ القارئ يتعجب من مقالنا وينسبه الى المبالغة ويقول: كيف يصح ان لا يكون وطنية صادقة خارجة من الدين ونحن نرى كثيرين صادقي الوطنيّة لا دين لهم. لو اجبنا اننا لم نتكلم حتى الآن الّا بوجه العموم عمّا من شأنه احياء الوطنيّة الصادقة وانماؤها ولم ننفِ وجود الوطنيّة في افراد لا دين لهم لكان جوابنا كافيًا لردّ كل ما يضعف قوّة برهاننا اذ الاعتراض لا يمس جوهر الحقيقة التي اردنا اثباتها. غير اننا لا نرضى بهذا الجواب السلبي بل نحب النظر في نفس الاعتراض لنرى ان كان فيه للصواب نصيب

فنقول اولًا ان كثيرين يوهمون باقوالهم وبعض اعمالهم انهم مطبوعون على الوطنيّة الصادقة وهم ليسوا عليها بشيء. لان الاقوال والاعمال لا تنسب الى الوطنيّة الصادقة الّا اذا كانت صادرة عن فضيلة باطنة تحمل الانسان على العمل حبًّا بالوطن لا غير. فانهُ من الممكن اتيان بعض الاعمال المفيدة ظاهرًا للوطن وهي صادرة عن الطمع في المنصب الاول او حب المجد الباطل او الرغبة في الشهرة او التشفي من الذين لساؤوا الى غير ذلك من العواطف الدنيئة. هذا كاتب يسطر في الجرائد اقوالًا طافحة بعواطف الوطنيّة يبرق و يرعد ويستنزل صواعق السماء على الاثام الذين يخونون الوطن فتقول: هذا وطني صادق اللهجة. ولكنك اذا فحصت عنهُ وجدت انهُ اجنبي ليس فيهِ من الوطنيّة ذرة وانما في صدره حزازات يخفيها تحت لواء الوطنيّة والوطنيّة منها براء. وامثال هذا كثيرون كشف التاريخ النقاب عن سرائرهم فنفى عنهم الوطنية التي كانوا تردّوا بها ليغرّوا معاصريهم. وعليهِ لا يمكننا ان نحكم بصدق وطنيّة الرجل الكافر الّا اذا اطلعنا على اسراره. فترى من هذه الملاحظة البسيطة ان الذين يستشهد بهم المعترض ليسوا كثيرين كما يتوهم بل افرادًا قلائل

نقول ثانيًا ان هؤلاء الافراد القلائل الذين يمكن اثبات وطنيتهم الصادقة مع كونهم خلعوا عنهم ربقة الدين يوهمون ان وطنيتهم مستقلة عن الدين وليست كذلك فانّ من تأمل امرهم رأى ان مظاهر الوطنيّة منهم وان صادقة انما هي بقايا الدين لم

يفسخها بعد تقادم العهد به . فان الفضائل التي مارسوها قبل كفرهم ام على الاقل التي مارسها اباؤهم واجدادهم الديّنون ابقت في النفوس عوائد ارثيّة حسنة واخلاقاً حميدة تثبت وان زال مصدرها كأنوار تلك الكواكب الشاسعة البعد التي يبقى نورها وقد زالت عن عالمنا لبعد فلكها الرائع . فيظن الانسان ان تلك فضائل اكتسابية وانما هي غرائز ارثية لا فضل لصاحبها فيها تمحى آثارها بعد جيل او جيلين

نقول ثالثاً انه وان وجدت الوطنيّة في بعض الافراد ممن رزقتهم الطبيعة سجايا فريدة دون ان يكون فيها للدين نصيب ألا ان الدين واجب لانماء الوطنيّة وكمالها . لان الوطنيّة الصادقة التي نتكلم عنها ليست فقط عاطفة حب طبيعي الارض التي وُجدنا فيها واستنشقنا هواءها وامتعنا اول لحاظنا بمحاسنها . وليست فقط ميلاً حسياً الى اهلنا واقاربنا وذوي جنسنا يدفعنا الى المحاماة عنهم والذب عن حقوقهم فان هذه هي العصبية بالذات . بل هي فضيلة تحملنا على كل ما من شأنه منفعة الوطن واعلاء كلمته . بل قل هي مجموع الفضائل التي موضوعها الهيئة الاجتماعية . الوطنية الصادقة الكاملة تحمل ربّ البيت على تربية اولاده كما يجب وتدبير عائلته بحكمة مبتعداً عن الشح الذميم والترف المخنث لان بالعائلة قوام الجمعية البشريّة فليس وطنياً صادقاً ذاك الذي يرمي اولاده في ميتم ليطلق لشهواته العنان كما فعل جان جاك روسو ابو السوسياليسم . الوطنيّة الصادقة تحمل المرء على مراعاة احكام الزواج المقدسة لان فيها قوة النسل وبالنسل قوة الوطن وثباته . الوطنيّة الصادقة تحمل المرء على تضحية صالحه الخاص في طلب المناصب اذا اقتضى خير الوطن تسليمها الى من هو اجدر . وقس عليه . فممارسة جميع هذه الفضائل في كل آن وحين لامر صعب يعجز عنه من لا يؤمن بالله ايماناً قوياً ولو زيّنته الطبيعة بالمحامد والسجايا الطيبة . ثبت اذاً ان الديانة ضرورية لاحياء الوطنية الصادقة ليس فقط لعموم الشعب بل للمتفردين بحسن سجاياهم . وذلك كما قلنا لانّ هذه الفضيلة سامية لا ينالها من لم يتقِ الله

وعليه اذا كان الدين زاهراً كانت الوطنيّة متاصلة في القلوب صادقة واذا كان الدين في انحطاط كانت الوطنيّة في انحطاط ايضاً يشهد بذلك التاريخ القديم والحديث امّا القديم فظاهر لان الوطن والدين قبل المسيح كانا شيئاً واحداً . فمن دافع عن وطنه دافع عن دينه . امّا بعد المسيح فان الدين والوطن وان امتازا ألّا انهما بقيا سائرين يداً في

يد حتى الجيل الثامن عشر جيل الكفر وجيل الانحطاط ايضاً باجماع الكل. فأخذت الوطنيَّة تضعف. ولا اريد برهاناً على ذلك سوى عواطف زعماء الفلسفة المادية الذين كفولتير وروسو وديدرو وهلمَّ جرًّا فان هذه العصابة وان افرنسية كانت تكاتب ملك بروسيا وتهنئهُ على انتصاراته على فرنسا. امَّا زعماء الثورة سفكة الدماء فاننا نجل الوطنية عن ان ننسبها اليهم وقد كان اكثرهم اجانب. انما استماتوا بوطنيَّة الشعب وقد كان ديِّناً بعدُ لتحصيل مآربهم. امَّا في الجيل التاسع عشر والعشرين فقد بلغ الكفر حدًّا لم يبلغهُ قبلًا فزهت بين ذويه وازدهرت تلك الشيعة الاثيمة شيعة اللاوطنيَّة وهي من نتائج التعليم الكفري

افيرتاب بعد ذلك القارئ في صحة القضية التي احببنا اثباتها ؟

*

ولكن المعترض يلح علينا: اراك من اهل التعصب ولا خير في التعصب سوى خراب الوطن فالعصر عصر تساهل وعلينا ان نجاري العصر والَّا كنَّا من المتأخرين. مهلًا يا هذا فان كلمة تكفي لدحض زعمك

ان الابهام في المسائل المهمة من اعظم الوسائل التي يتذرع بها اعداء الدين ليصطادوا البسطاء والسذَّج اي السواد الاعظم من كل امة. فانهم يستعينون بالفاظ ذات معانٍ لا يفسرونها ابدًا فيبنا القرَّاء او السامعون يحملونها على معنى يحملها قائلوها على معنى آخر فتنتشر وتنتشر معها مبادئ فاسدة تصبح في ايدي المحركين آلة قوية لاحداث الشغب وزرع الفساد. من هذه الالفاظ لفظة التعصب وعكسها التساهل. فانك تجد المقالات المطولة في ضرر التعصب وضرورة التساهل فالتعصب اصل كل شر والتساهل منبع كل صلاح وخير. واذا طلبت تعريفًا واضحًا لهاتين اللفظتين لم تجده. فعلينا اذًا ان نكشف عنهُ النقاب قبل الجواب على الاعتراض

للتساهل معنيان على الأقل. الاول هو التساهل مع الاشخاص وهو احتمال من كان على رأيٍ يخالف لرأينا سيما في امور الدين ومعاملته بالرفق والمحبة مع ما بيننا من التباين في العقيدة. فان كان هذا المراد من التساهل فليس هو امرًا مستحدثًا لانهُ مما

يعلمنا الدين فان هذا التساهل واجب على كل مسيحي سيا في بلاد كثرت مذاهبها ولولاه لتعذر الائتلاف وزال الاتحاد الذي لا تقوم المملكة بدونه

وهناك معنى ثانٍ في اصطلاح جملة من الكتبة اللادينيين. يريدون بالتساهل التساهل في المبدإ والعقيدة بحيث يعتبرون الاديان كلها سواء فعلى زعمهم يجب على كل فرد من افراد الهيئة الاجتماعية ان يُجِلّ ديانة صاحب المنزلة التي يُحِلّ فيها ديانته. وان بقي هو على دينه ولم يعتنق دين صاحبه فانما ذلك لانهُ وُلد فيهِ ليس الّا. وكما ان المرء لا يغيّر جنسيته كذلك لا يغير دينه. وكما ان الفرق بين الجنسيات لا طائل تحته كذلك الفرق بين الاديان. فهذا التساهل الذي يرغب البعض في رفع لوائه بيننا لا يمكنا التسليم بهِ مطلقاً لانهُ جحودٌ بالعمل لكل دين وابطال بالفعل لكل عقيدة. ولا عجب لانهُ لو كانت كل الاديان متساوية فلا يكون تساويها الّا في الفساد. وذلك لان في الاديان عقائد متناقضة فلو كانت كلها سواء للزم ان تكون كلها صحيحة او كلها فاسدة فلا يمكن ان تكون كلها صحيحة لان الحق لا تناقض فيهِ فبقي اذاً ان تكون كلها فاسدة ولذلك رذلت الكنيسة هذا التساهل مراراً بل رذلهُ كل موحد وكل فيلسوف اهلٍ لهذا الاسم

فبعد هذه المقدمات نرجع الى اعتراض صاحبنا فنجيبه: نعم ان التربية الدينيَّة تنافي التساهل في المبدإ والعقيدة. هذا لا ينكره مؤمن. غير انهُ ينكر ان هذا التساهل ضروري لوحدة الوطن وارتقائهِ في سلّم العمران. فان التساهل مع الاشخاص كافٍ لبلوغ هذه الغاية. وذلك لان الغاية التي تتوخاها الديانة هي غير الغاية التي لاجلها اولًا جُعلت الهيئة المدنية. فالاولى تعيّ للانفس وسائل الخلاص الابدي. والثانية اسباب الخير الزمني. تلك تساعده على بلوغ السعادة الابدية. وهذه على بلوغ السعادة الزمنية. وعليه امكن توحد الديانة وتعدد المالك وكذلك يمكن توحد المملكة مع تعدد الاديان ولا نريد القول ان توحد الدين في المملكة ليس من الاسباب القوية لتوثيق عرى الاتحاد حتى في الامور الزمنية ولكنا نقول ان هذه الوحدة ليست من الضرورة في درجة لا يستطاع الاستغناء عنها. ولنا فيما نشاهده حولنا برهان آخر على صحة قولنا فانا نرى عدة ممالك تعد في مقدمة الشعوب في المدنية قد كثرت فيها المذاهب ولم يدّعِ فيها احدٌ ان من ضروريات وجودها التساهل في الدين. هذه مثلًا

المانيا وانكلترا والولايات المتحدة فانكل يعلمون ان الكثلكة فيها زاهرة زاهية ومع ذلك لم يُخلّ تمك الكاثوليك بايانهم وتعصبهم لديهم دون وطنيتهم ولم يمنعهم من ان يكونوا من اعظم اعوان النجاح في بلادهم. بل رأينا الملوك والوزراء يشهدون لهم قولًا وفعلًا بصدق وطنيتهم . فاذا تجاسر احد وطعن فيها اقتصت منهُ المحاكم كما جرى للاب ڤون الواعظ الشهير منذ بضع سنين. فقد كانت احدى الجرائد البروتستانية طعنت فيه وسمَّتهُ خائنًا زاعمةً انهُ كاهن كاثوليكي. فرفع الاب دعواه الى المحاكم فحكمت على اصحاب الجريدة بالقصاص الصارم

فلا داعي البتة الى مسح الصبغة الدينية عن التهذيب والتعليم بل من الواجب تقوية العواطف الدينية في القلوب لاسيما الآن وقد اطلقت لنا الحرية المدنية والسياسية لان الاحكام السابقة وان كانت تقيد حريتنا وتثبط هممنا وتمنعها من الاقدام على امور فيها صلاحنا وصلاح البلاد الّا انها كانت ايضًا كسور يحمي النفس من تعديات اهوائها واميالها الفاسدة وكتنان يكبح جموح النفس الأمّارة بالسوء . امَّا الآن وقد هُدِم هذا السور الخارجي فلا بُدَّ من حاجز باطني يوقف الحرية عند حدودها لئلا تتعداها وتأتي بما يخل بالنظام العام ويضر الوطن . وان هذا السور الداخلي الذي يمنع شرود النفس هو الدين فانهُ ينبه المرء على الخطأ ويزجره ويرشده الى الحق ويستحثه على اتباعه كما قلنا .
فاذا كان الدين ضروريًا للانسان في كل احواله فهو اشد ضرورة في حكم الحرية

وعليه يحق لنا ان نكرر في الختام ما قلناه في الافتتاح واثبتناه بالبرهان ان ليس حياة للوطن الّا بالدين والتربية الدينية . وقد صدق بلوترخس الوثني اذ قال : « انهُ لأسهل على الانسان بناء مدينة في الهواء من بناء مدينة بلا دين » وليس قولهُ سوى صدى الحكمة الازلية اذ قالت (المزمور ١٢٦ : ١ و ٢) : « ان لم يبنِ الربُّ البيتَ فباطلًا يتعب البنّاؤون . وان لم يحرس الربُّ المدينة فباطلًا يسهر الحارس »

اصول البلاغة عند العرب

للاب خليل اده اليسوعي

لعلّ القارئ يحسب ان الظروف غير موافقة للبحث في المواضيع الادبية كالبلاغة واصولها. فالناس الى البلاغة العمليّة احوج منهم الى البلاغة النظرية. والى قعقعات الابواق اشدّ ارتياحاً منهم الى نفثات الاقلام. ولكنّ عذرنا ان كان لا بُدّ من الاعتذار في الظروف عينها. فانا في جيل تقلُّب واقتداء. وهدم وبناء. ولا جرم فان الامم الاوربية جرت في المدنية شوطاً بعيدًا فسبقتنا وجنت من نشاطها ثمارًا شهيّة حسدناها عليها. فأخذنا على انفسنا مباراتها ومتابعة آثارها لعلّنا نبلغ مبلغها. فشرعنا نتعلم علومها ونتلقن فنونها ونهتدي بشرائعها ونتخلق باخلاقها كما اننا تزيّنا بازيائها. ولكن في الاقتداء الاعمى خطرًا. فليس كل ما عندنا غثًا فننسخهُ ولا كل ما عندها سميناً فنطلبهُ. وعليهِ فانا في حاجة الى التبصر والتمييز لنرى ما هو صالح فنبقيه وما هو فاسد فننفيه. وما هو ناقص فنستعيره. تلك سنّة الترقي الحقيقي التي ينبغي مراعاتها عموماً وفي الآداب خصوصاً

ولذلك لم نجد الكلام في اصول البلاغة عندنا فضولياً فان صناعة الكلام اكثر الصناعات انفعالًا وتأثرًا اذا طرأت التغييرات على احوال البلاد. ولا عجب فان الادب مرآة الحياة وصورتها. فيجب البحث فيها حتى نرى ان كانت اصولها ملائمة لمقتضى حالنا كافية لاغراض الكتابة والخطابة في عصرنا. ولمّا كانت البلاغة عند الاوربيين مطابقة للاحوال الحاضرة مناسبة لنزعات « النفس العصريّة » اصبحت المقابلة بين اصول البلاغة عندنا واصولها عندهم اقرب طريق واوضح سبيل الى بلوغ غايتنا

ثم ان في درس الاصول منافع جمّة. فانهُ اولًا يكفينا مؤونة المطالعة المملّة والنظر المدمن في مصنفات عديدة. لان البيانيين لم يهتدوا الى الاصول التي وضعوها الّا بعد تصفح المؤلفات والفحص المدقق وقد اودعوا نتيجة استقرائهم في القواعد التي رسموها فنستفيد في درسها من عنائهم وتعبهم ولا نشاركهم فيهِ

وهناك فائدة ثانية من درس الاصول فانهُ يؤمّنا من العثرات في تأويل ما ألف

سلفاؤنا والانتقاد عليه . فربّما نسبنا الى الذوق العربي ما هو خلوٌ منهُ . يدفعنا الى ذلك تقادم العهد بالمؤلفات الادبيَّة وجهلنا لاحوال بلادنا في القرون الماضية . وامَّا اذا استندنا الى واضعي الاصول وهم من ائمة الكلام الذين يُشهد لهم بحسن الذوق وسلامة الطبع — اللهمَّ بين معاصريهم — لأمنَّا الزلل وسلمنا من الخطأ في الحكم

والفائدة الثالثة ان معرفة الاصول تهدينا الى معرفة المصنفات ذاتها لان الاصول انما هي احكام كليَّة استُخلصت من مؤلفات أئمة الشعر والنثر فهي كصفوتها وزبدتها فمن حصَّلها حصَّل شيئاً من الصنعة تبعها . سيما وان المبادئ تؤيَّد بالامثال . والامثال منتخبة من درر الاقوال فمن التقطها التقط شيئاً من كنوز البلاغة وعرف مما في يده قيمة ما في خزائنه . هذا في المؤلفات التي سبقت وضع الاصول . واما التي اتت بعدها فالاصول هي ايضاً مفتاح كنوزها لان ارباب الصناعة النثرية والشعرية لما انتشرت كتب الاصول واشتهرت وراجت احكامها في عالم الطلاب ورائدي البلاغة اقبلوا عليها هم ايضاً واتخذوها لهم قاعدة فنسجوا على منوالها وألفوا على مثالها

فترى كيف تتناول معرفة الاصول مصنفات الذين اتوا بعد عصر واضعيها كما انها تفيدنا علماً بمصنفات الاعصر السابقة . فليس اذن درسنا للاصول خالياً من المنفعة لمعرفة المؤلفات فانهُ كما ترى مفتاح اسرارها

*

من اراد الاطلاع على مبادئ البلاغة عند العرب المتأخرين فعليه بمطالعة اي كتاب مدرسيٍّ كان . مثلاً كتاب دروس البلاغة الشائع في المدارس المصرية او كتاب عقد الجمان للشيخ ناصيف اليازجي او غيرهما . لان كل هذه الكتب على نمط واحد لا تختلف اختلافاً جوهريًا فهي كلها على مذهب السكاكي وقد اصبح اماماً في الدروس الادبية بتأليفه كتابه الشهير « مفتاح العلوم » . فاتَّبعه كل الذين اتوا بعده واتخذوا كتابه اساساً لابحاثهم فشرحوهُ وتوسَّعوا فيه ولخصوه وذيَّلوه وعلقوا عليه الحواشي ولم يزيدوا على اصوله شيئاً يذكر فكأنَّ قرائح العلماء بعده اي من الجيل الثالث عشر الى أيامنا قد جمدت . فان تكلمنا عن كتاب دروس البلاغة او غيره فليس مرادنا انتقاد المؤلفات المدرسية انما قصدنا البحث في المذهب العلمي الذي تنتمي اليه تلك المصنفات وهو كما قلنا مذهب السكاكي ومَن شايعه من العلماء كالتفتازاني والشيرازي وغيرهما

قسموا علوم البلاغة الى ثلاثة اقسام علم المعاني وعلم البيان وعلم البديع. لمّا علم المعاني فموضوعه التراكيب النحوية من حيث مطابقتها لمقتضى الحال وغرضه افادة الطالب قوة التراكيب النحوية وكيفية استعمالها بحسب ما تقتضيه منهُ الظروف. فيبحث في الاسناد والخبر والانشاء والذكر والحذف والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير والاطلاق والتقييد والقصر والوصل والفصل والايجاز والاطناب والمساواة الخ. وكل هذه الابواب الّا النزر القليل منها عائدة الى درس النحو وبيان لطيف معانيه وكشف دقيق مبانيه وهي في اللغات الاجنبية من متعلقات علم الغراماطيق وهو اوسع من علمي النحو والصرف عندنا

فليس اذًا علم المعاني علماً يُعرف بهِ ما يجب استعماله من المعاني بمقتضى المواضيع المقترحة على المنشئ. شأن الكتب الاجنبية التي تبتدئ بوصف المعاني وذكر مميزاتها. انما هو علم محصور يقتصر على معاني التراكيب العربية لا غير والغرض منهُ وضع كل تركيب في موضعه على ما تقتضيه حاجة المتكلم والسامع. فهو كما ترى تتمة للنحو

ثم يليه علم البيان. وقد اجتزأوا فيهِ بالبحث عن التشبيه والمجاز وانواعه والكناية وعرّفوه بانهُ علم يُعرف بهِ ايراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليهِ بعد مراعاة مقتضى الحال. وتحقيق ذلك ان المعنى البسيط مثل كثرة الكرم ربما احتاج البليغ الى نسبته الى شخص باوجه تتفاوت في الوضوح مع لزوم الدلالة على المعنى. فيستعين بالتشبيه تارةً ويقول مثلاً: زيد كالبحر في الكرم. واخرى بالاستعارة كقولك: وردت بحرًا وتقديرك زيدًا وهو كريم كالبحر. وطورًا بانواع المجاز المرسل كما في زيدٌ طلق اليدين بالمعروف. او بالكناية مثل: زيد كثير الرماد وهلم جرًّا. فهذه طرق مختلفة تدلّ على معنى واحد وهو نسبة الكرم لزيد غير ان وضوح هذه النسبة متفاوت الدرجات في الامثلة المذكورة فهو ظاهر جدًّا في التشبيه واخفى في الكناية. وانما تستعمل وجهاً دون الآخر بموجب داعي الحال ومقتضى الظروف

ومما ينبغي التنبيه اليهِ هنا ان المراد بالمعنى في التعريف السابق هو المعنى المجرَّد. والمقصود من المعنى المجرَّد المعنى المنفصل عن موضوعه والذي يذكر من مدلوله الصفات العامة التي تنطبق على كل افراد جنسه كقولك: رجل وكرم وعلم وهلمَّ جرًّا. والّا لَما امكنك القول في الامثال المذكورة ان المعنى واحد وانما الاختلاف في طرق الدلالة

عليه. لانك اذا اعتبرت المعنى المراد من كل واحد من التعابير السابقة وتأملتهُ يومئذٍ وجب القول بانهُ يختلف باختلاف التعبير. ففي قولك زيدٌ كثير الكرم افدت صورة ذهنية مجردة لا غير. اما بقولك زيد كالبحر في الكرم فأفدت معنى الكرم ليس مجردًا بل مقيدًا بصورة خيالية هي البحر. وقس عليه

اما علم البديع وهو القسم الثالث من فن البلاغة فقد عرفهُ الحاج خليفة واحسن حيث قال (في كتاب كشف الظنون. الجزء الثاني من طبعة فلوجل. الصفحة ٣١):

« هو علم يعرف به وجوه تفيد الحسن في الكلام بعد رعاية المطابقة لمقتضى المقام ووضوح الدلالة على المرام. . ومرتبة هذا العلم بعد مرتبة علمَي المعاني والبيان حتى ان بعضهم لم يجعله علمًا على حدة وجعله ذيلًا لهما. لكنَّ تأخر رتبته لا يمنع كونه مستقلًا . . . وإ(١) منفعته فاظهار رونق الكلام حتى يلج الأُذُن بغير إذن. ويتعلق بالقلب من غير كد. وانما دوَّنوا هذا العلم لانه الاصل وان كان الحسن الذاتي وكان المعاني والبيان مما يكفي في تحصيله لكنهم اعتنوا بشأن الحسن العرضي ايضًا لان الحسناء اذا عُرّيت من المزيّنات ربما يذهل بعض القاصرين عن تتبع محاسنها. . ثم إن وجوه التحسين الزائد إمَّا راجعة الى تحسين المعنى اصالةً وان كان لا يخلو من تحسين اللفظ تبعًا. واما راجعة الى تحسين اللفظ كذلك. فالاول تسمى معنوية والثانية لفظية. وهذا الفن ذكره اهل البيان في آخر علم البيان الّا ان المتأخرين زادوا عليه شيئًا كثيرًا ونظموا فيه قصائد والَّفوا كتبًا . . . »(١

فكلام الحاج خليفة واضح لا يحتاج الى تفسير. نفهم منهُ ماهية البديع ونسبته الى المعاني والبيان. ومن اعتبار هذه العلوم الثلاثة يتضح لنا كيف تصوَّر علماء الاصول البيانية حسن الكلام. فان البليغ على مذهبهم يعمد الى المعنى المجرد ويجعلهُ في قالب يطابق ما تقتضيه منهُ الحاجة ثم يوضحهُ او يخفيه يصرّح به او يعرّض على ما تستوجبه الظروف باستعمال انواع التشبيه والاستعارة والمجاز او الكناية. فاذا حصل كل ذلك كان الكلام حسنًا الّا ان هذا الحسن وان جوهريًّا يحتاج بعد الى زينة تزيد في رونقه وتعيره حسنًا عرضيًا. فيلتجئ حينئذٍ الشاعر او الناثر الى علم البديع وينتقي من محسناته المعنوية او اللفظية ما يراه مناسبًا لكلامه . فاذا تمَّ العمل تمت الصنعة وكانت من البلاغة في مكان . فالمعنى المتبر عند البيانيين يظهر لنا كانهُ روح وطرق البيان كالجسم له واشكال البديع كانواع الحليّ. هذا على مذهب السكاكي ماخَّص الاصول التي يجب مراعاتها لتحصل في نفس طالبها ملكة البلاغة. ويمكننا وصفها بكلمة فنقول انها

(١) اول من الَّف في البديع ابن المعتز وضع ١٧ شكلًا منهُ ثم زاد عليه المتأخرون حتى بلغوا من الاشكال البديعية ١٨٠ نوعًا

صناعة حسن التعبير عما في الضمير. وذلك لا شك مفاد اللفظتين اللتين تطلقان عليها اعني الفصاحة والبلاغة. فانهما مهما تأوّلوهما لا يخرجان عن ان يفيدا معنى التعبير التام. والمراد بالتعبير ليس فقط سبك المعنى في قالب من الالفاظ يناسبه بل هو ايضاً كما مرّ بك ايجاد الصورة البيانية التي يحسن اتخاذها لتصوير المعنى المجرّد تصويراً خيالياً. ثم تزيين تلك الصورة بانواع الحليّ ليظهر رونقها وبعد ذلك كله تبرز الصورة كاملة بواسطة الالفاظ. فالتعبير اذاً تصوير خياليّ للمعنى المجرّد ثم تصوير لفظي. فمادّة فنّ البلاغة عند العرب هي المعاني المجردة وعمله الخاص حسن التعبير عنها والاصول موضوعة لاجل ذلك الغرض لا غير. والمعاني المجردة على قولهم مشتركة بين الناس لا تختص بواحد دون الآخر. اما كيفية التصرف بها وايرادها باساليب متنوعة فراجعة الى البليغ مختصة به واليك امثالاً تجديك علماً بطريقتهم

اذا اردت تعزية رجل على موت احد احبائه فعليك اولاً ان تتذكر المعاني الشائعة التي تستعمل في مثل هذا المقام مثلاً: ان خيار الناس يموتون قبل غيرهم. ان الموت امر طبيعي للانسان. صالح الانسان بعد موته. الموت لا يمنعهُ شيء. الخ. هذه المعاني ينبه اليها الذكاء الغريزي او الاكتسابي وحسن الذوق فلا دخل فيها لعلم البلاغة عندهم

ثم بعد انتقاء المعاني التي تراها ملائمة يجب تصويرها في ذهنك تصويراً خيالياً يخرجها عن هيئتها المجردة ويوليها جسماً محسوساً حيّاً. لانك ان اكتفيت بالتعبير عن المعاني المذكورة باساليبها المبتذلة لم يكن لكلامك مسحة البلاغة. فعليك اذاً ان تحليها في مخيلتك لتحليها بالصفات المطلوبة ويمكنك حينئذٍ الاستعانة باصول البلاغة

فاعمد اذاً الى المعنى الاول وهو ان خيار الناس يموتون قبل غيرهم فان كنت قوي الطبع في الصناعة تمثلت الناس كأنهم الخيل الجياد في حلبة السباق يتراكضون الى الغاية وهي الموت فيسبق منهم من كان افضلهم. هذا هو التصوير الخيالي الذي تساعدك الاصول على رسمه رسماً حسناً. فاذا تمّ التصوير الخيالي فابرزه بالالفاظ واستعن باللغة والوزن واصول الفصاحة وقل كما قال ابن النبيه يرثي ولد الناصر احمد امير المؤمنين (١:

الناسُ للموتِ كخيل الطرادْ فالسابقُ السابقُ منها الجوادْ

١) طالع الجاني ه ص ٣٤٢

وان كان هذا المعنى غالياً على عقلك واحببت اعادته فلا بأس ولكن أجله ثانيةً في مخيلتك لملك تعيدهُ حياةً ثانيةً بصورة مختلفة عن الاولى. وذلك مثلاً ان تتصور الله كملك عظيم جلس لرعاياه كما كان يفعل الخلفاء قديماً واخذ يستدعي اليهِ ويستدني منهُ من رآه بين عباده حائزًا الصفات المحمودة. فاذا تهيأ لك ذلك عمدت الى اللفظ وعبّرت عما تصورت وانت تستعين في كلا العملين باصول البلاغة. فتقول مع الشاعر:

واللهُ لا يدعو الى داره الّا من استصلح من ذي العبادْ

ويمكنك ايضاً ان لم تكتفِ بالبيتين ان تنظم بيتاً ثالثاً لتستنفد ما في صدرك من قوة التعبير للمعنى الواحد فتعمل بهِ كما عملت اولًا وثانياً وتقول:

والموتُ نقّادٌ على كفّهِ جواهرٌ يختار منها الجيادْ

واذا انتهيت من هذا المعنى فاطلب الثاني وهو ان الموت امر طبيعي للانسان وتصرف بهِ كما تصرفت بالاول وقلْ كما قال ابن النبيه:

والمرء كالظلّ ولا بُدّ ان يزول ذاك الظل بعد امتدادْ

وقس عليه. هذا في الحكم التي هي اقوال مجردة من طبعها. واليك الآن امثالًا مأخوذة عن المشاهدات تبيّن لك كيف يجردون المعاني من موضوعاتها ثم يعالجونها بالبيان والبديع على ما مرَّ بك

هذا فرس ارادوا وصفه. فما العمل؟ يعمدونَ الى المعاني الشائعة التي تصف محاسن الخيل ثم يجتهدون في التعبير عنها باساليب شائقة رائقة. فان كان المقصود مثلًا وصف الفرس بالسواد والتحجيل والبياض في الجبهة وهي كلها صفات مجردة عن موضوعاتها لا تختص بفرس دون آخر لم يكتفوا بالقول ان الفرس ادهم محجل اغرّ لان هذه المعاني مبتذلة يجري عليها العالم والجاهل. ولكنهم يقولون كما قال المعرّي (١:

صاغ النهار حجولهُ فكانما قطعت لهُ الظلماء ثوبَ الادهمِ

او كما قال ابن نباتة السعدي (٢:

يختال منهُ على اغرّ محجّل ماء الدياجي قطرةٌ من مائهِ
فكانما لطم الصباح جبينه فاقتصّ منهُ فخاض في احشائهِ

---

١) اطلب الجزء الاول من شرح التنوير (ص ٧٦)
٢) المجاني ٥ : ٢١٠

وكذلك ان قلت عن فرس انهُ ابلق لم تأتِ جَلَلاً. ولكن المعنى يصبح على زعمهم بليغاً واللفظ فصيحاً اذا قلت (١ :

وابلقَ اعلى الليلَ نصفَ اهابه وغار عليهِ الصبح فاحتبس النصفا

او انشدت مع ابي تمام (٢ :

سودٌ شطرٍ مثل ما اسودَّ الدجى بيضٌ شطرٍ كابيضاض المهرقِ

ولم اذكر هذه الابيات لاني استحسنها بل لأُفهم القارئ ما هو دور البلاغة في عرف المتأخرين من البيانيين وأستشهد بالامثال على صحة ما قدمتهُ

ولنا ايضاً شاهد آخر في طريقة المقابلة بين الشعراء والمعارضة بين اشعارهم الشائعة في كتب البيان او مقالات اصحاب النقد. فانهم اذا ارادوا الترجيح بين الشعراء اخذوا معنى من المعاني وذكروا ما قاله فيه شاعر وعارضوه بما قال فيه ايضاً شاعر آخر. وما ذلك الا لانَّ مدار البلاغة في اعتبارهم على حسن سبك المعاني المجردة في صورة من البديع جديدة وقالب من الالفاظ يلائمها. وإنَّ هذا سوى فنّ التعبير كما قلنا. ولا بُدَّ من مقابلة اصوله باصول الصناعة عند الفرنج لتزداد حقيقته وضوحاً

*

في كل صنعة ادبيةً كانت او فنيةً يجب مراعاة ثلاثة اشياء: اولاً الموضوع. وثانياً تصوير الموضوع في نفس الصانع. وثالثاً ابراز الصورة بقالب الالفاظ او الانغام او ما قابلها في باقي الصناعات بحسب طبيعتها

فالموضوع ما يراد تمثيله في الصنعة فيكون اما ذاتاً او صفةً. واما خُلقاً او حالاً. واما كلاماً او عاطفة. وبالاختصار هو كل موجود حقيقةً او ممكن الوجود فهو الله وصفاته عزَّ وجل. والانسان وقواه وافكاره وعواطفه واعماله. والطبيعة جماء من جماد ونبات وحيوان. هي الحوادث وصروفها. والحقائق وضروبها. والممكنات وتشعباتها التي لا نهاية وراءها. هذا موضوع الفنون عند الفرنج وهو واسع كما ترى. والغرض منها تمثيل ذلك العالم عالم الحقيقة وعالم الخيال تمثيلاً محسوساً فان في ذلك لذةً لطيفة شريفة

١) اطلب ثمرات الاوراق للحموي ص ٢٨٣

٢) الجاني ٥ : ٢١٠

نسميها اللذة او العاطفة الشعرية (l'émotion esthétique) . فترى من اول وهلة عظم الفرق بين تصوُّر الفرنج لفن الكلام وتصوُّر العرب . فان مادة البلاغة عند الفرنج التي يشتغل بها صاحب الصناعة ليصوّر فيها الحسن البياني هي الموضوعات والاشياء نفسها . اما عند العرب فمادة البلاغة وما يعمدون اليه اولًا ليعالجوه ويصوغوا منهُ كلامهم هي المعاني المنتزعة من الموضوعات (١

صاحب الصناعة الفرنجية يرتاح الى معاينة الموضوعات ورسمها رسمًا يخال له انه يرى فيهِ محاسنها وبدائعها او حقيقتها . وامّا صاحب الصناعة العربيّة فيلتذّ بالتأمل في المعاني المجردة المبتذلة ليجد هيئة جديدة يصورها فيها ويبرزها كأنها مبتكرة . ذلك يطرب لشعرية الاشياء . حتى انهُ لو امكنه إشعار الغير بها من غير استعمال الاشكال البديعة لفعل . وامّا هذا فلا يهتمّ كثيرًا بشعريّة الاشياء . انما يطرب لشعرية التعبير اي حسن الدلالة على المعاني . واليك مثلًا على ذلك :

يعرف الادباء ابيات كُثَيِّر عزّة فهي مذكورة في كل كتب البيان :

ولما قضينا من منى كل حاجة	ومسّح بالاركان مَن هو ماسحُ
وشُدّت على حدب المهاري رحالنا	ولم ينظر الغادي الذي هو رائحُ
اخذنا بأطراف الاحاديث بيننا	وسالت بأعناق المطيّ الاباطحُ

هذه الابيات يستحسنها كل ذي ذوق سليم ومع ذلك ترى البيانيين في حيرة من امرهم لا يدرون كيف يبرهنون عن اوجه حسنها . فقال بعضهم ان حسن هذه الابيات في حسن الفاظها . وقال آخرون بل في رشاقة التعبير . وقال غيرهم بل في جودة المعاني . وربما غلب التطبُّع فريقًا منهم فانكروها وقالوا ليس في معناها من فائدة . وما سبب هذا الاختلاف بين النقادين الّا لانهم على مذهبهم لا ينظرون الّا في المعاني المجردة وطرق التعبير فالمعاني هنا بسيطة جدًا والتعبير خالٍ من التنسيق والزخرف ومع ذلك

---

١) والفرق بين الموضوعات والمعاني المنتزعة منها ظاهر لكل من لهُ بعض الالمام بعلم الفلسفة . وهو الفرق الموجود بين الشيء عينه والعلامة التي تدلّ عليهِ . مثلًا بين معنى الشجرة عمومًا والشجرة الفلانية فان مدلول لفظة الشجرة محصور في الصفات الجوهرية التي تفصل جنس الشجر عن باقي النبات وبالاحرى عن الجمادات والحيوانات . واما الشجرة الفلانية ففيها تلك الصفات الكلية التي تدل عليها لفظة الشجرة وجملة صفات اخر خصوصية . فالحقيقة اذًا اوسع جدًا من المعنى

يفهم الطبع السليم انها في غاية الجودة ولذلك تراهم حائرين ذاهبين في الحكم مذاهب. وعلى رأينا انهم لو لم يشتغلوا بالمعاني عن موضوعاتها ولو كان اساس البلاغة عندهم معاينة الموضوعات والاهتمام في تمثيلها كما هو شائع عند اصحاب الصناعة الفرنجية لما وقعوا في بهمة من امرهم. لان المسألة في غاية السهولة وذلك ان في هيئة الاسفار عندنا قبل العربات والقطارات البخارية سيما في الرجوع الى الاوطان بعد غيبة طويلة وقطع مسافة شاقة والسلامة من الاخطار لَمَسحةً شعريّة لا تفوت صاحب الذوق السليم. وقد أثّرت في قلب شاعرنا فاحبَّ ان يمثلها في ابياته ففعل ولم يحتج الى غريب المعاني ولا الى انيق الالفاظ فأتت ابياته في غاية الحسن ممثلة لما اراد. فنسلم اذًا ان المعاني مبتذلة والالفاظ اكثرها بسيط غير اننا نقول ان الموضوع جميل وان تمثيله حسن جدًّا وان كانت اسباب التمثيل اعني المعاني والالفاظ بسيطة. لان البلاغة ليست في المعنى والتعبير فقط انما هي قبل كل شيء في الموضوع والتمثيل. هذه طريقة الاحتجاج على مذهب الفرنج. فقد اتّضح لك على ظننا ما قلناه في الفرق بين مزاولة الموضوع ومزاولة المعاني. بين جعل الاشياء مبدأ الصناعة وترك التقدم فيها للمعاني. وقد اسهبنا في الكلام عنهُ لانهُ على رأينا اهمّ فاصل بين اصول البلاغة المدرسية عند العرب واصولها عند الفرنج ومنهُ تتشعب باقي الفروق (لها بقية)

سلطة البابا الزمنيّة

اقترح علينا الياس ميخائيل افندي صليبا من سبرنغفيلد ماس في الولايات المتحدة السؤال الآتي ما الذي اوجب الحكم الزمني للبابا؟ فاحببنا التوسع في الجواب لما في الموضوع من الفائدة

يمكنّا ان نحمل السؤال المطروح علينا على معنيين. الاول: كيف صارت الممالك التي كانت للكنيسة قبل السنة ١٨٧٠ الى ايدي البابوات. او كيف كان ابتداء المملكة البابوية وما هي الحقوق الشرعية الدولية التي تستند اليها؟ والثاني هذا تحريره: أيوجد سبب شرعي مأخوذ عن قوانين الكنيسة الهيةً كانت ام بشريّة يثبت السلطان الزمني للبابا

اما السوأل الاول فهو من ابحاث التاريخ نكتفي اليوم بالالمام بهِ في معرض كلامنا عن السوأل الثاني ولعلنا نرجع اليهِ مرة اخرى وعلى كل حال فهو دون الآخر اهميَّةً اذ ما من رجل عالم في التاريخ ينكر شرعيَّة تملُّك البابا زمنيًّا . فعلينا اذًا بالمعنى الثاني لانهُ كان ولم يزل موضوع الخصام بين الكنيسة ومَن نزعوا منها حقوقها الزمنيَّة .

وقبل الجواب لا بدَّ من تقديم بعض قضايا الايمان لتكون كاساس لما نقوله

نؤمن اولًا ان الكنيسة جمعيَّة كاملة اسسها السيد المسيح ابن الله المتجسد لتساعد البشر على بلوغ غايتهم القصوى اعني بها الخلاص الابدي فانهُ من الحقائق الموحاة ان السيد المسيح لم يترك تلاميذه ولا الذين يؤمنون بهِ مخيَّرين في اختيار الطريقة التي يريدونها لممارسة الديانة التي لقَّنهم مبادئها بل رسم حتمًا ان يكون كل المؤمنين بهِ اعضاء جمعيَّة واحدة كاملة مستقلة بذاتها سمَّاها الكنيسة او مملكة الله على الارض . وهذه الجمعيَّة ليست جمعيَّة ارواح بل هي جمعية مؤلفة من بشر وان كانت غايتها روحية . فيحق لها اذًا كل ما هو ضروري لقوام الجمعيَّات البشرية . ثم ان هذه الجمعية مستقلة اعني غير متعلقة بسلطان ما خارج عنها في الامور التي من دائرتها لان كل ما تربطهُ او تحلهُ على الارض يكون مربوطًا او محلولًا في السماء (متى ١٧ : ١٨) فليس اذًا لاحد غير الله ان يربط او يحلَّ ما تربطهُ الكنيسة او تحلهُ في امور الايمان والآداب

ونؤمن ايضًا ان هذه السلطة الكاملة سلطة الحلّ والربط التي في الكنيسة قد سلَّمها الربّ بنوع خصوصي لراعٍ واحد هو رأس الكنيسة المنظور حين قال لبطرس وفي شخصه لخلفائه : انت الصخرة وعلى هذه الصخرة ابني بيعتي وابواب الجحيم لن تقوى عليها « ولك » اعطي مفاتيح ملكوت السماوات فكل ما « حللتهُ » على الارض يكون محلولًا في السماء وكل ما « ربطتَهُ » على الارض يكون مربوطًا في السماء (متى ١٦ : ١٨ و ١٩) ثم : صلَّيت من « اجلكَ » لئلَّا ينقص ايمانك وانت متى رجعت « فثبِّت » اخوتك (لوقا ٢٢ : ٣٢) واخيرًا : ارعَ خرافي . ارعَ غنمي (يوحنا ٢١ : ١٦ و ١٧)

ونؤمن ثالثًا ان خلفاء مار بطرس هم الاحبار الرومانيون كما اثبته التقليد المتواصل في الكنيستين الشرقية والغربية وخصوصًا المجمع الفلورنتيني المسكوني والمجمع الفاتيكاني . فبموجب ايماننا يكون للبابا ملء السلطة في امور الدين ومتعلقاتها لا يحق

لاحد ان يعارضه في احكامه حينما يرعى ويسوس الكنيسة جمعاء. ولا يجوز لاحد من المسيحيين ان يستقلّ بنفسه في امور الدين ولو ملكاً فان الملوك خاضعة لسلطان البابا الروحي كسائر ابناء الكنيسة. يمكنهُ ان يُنبّههم على خطاءهم كما ينبه الاب ابنه. واذا سنّوا قانوناً منافياً للدين لهُ حق ان ينظر فيه ويبطله ان رآه ضاراً لخير الانفس. واذا اتوا امراً منكراً لهُ حق ان يوبّخهم بل ويفصلهم عن شركة الكنيسة. ولا يُعتبر قول من يزعم ان في الملك او الرئيس شخصين شخص السلطان وشخص المسيحي فبموجب كونه سلطاناً هو مستقل بذاته لا يعارضه في احكامه وشرائعه احد. وبما انهُ مسيحي هو خاضع للبابا. ان في هذا القول سفسطة محضة لان الانسان شخص واحد مسؤول امام الله عن اعماله العمومية والخصوصية. غير مُعفى من مراعاة قاعدة الآداب في عمل من اعماله الصادرة عن معرفة واختيار. مُطالب بتأدية الحساب عن احكامه السياسية كما يؤديه عن اعماله الذاتية بل باولى حجة لان الشر اذا صدر عن الرئيس بما انهُ رئيس كان اعمّ واعظم. وبما ان قاعدة الآداب التي يجب اتباعها منوطة بالكنيسة ورئيسها فالملك ملزوم بالخضوع للكنيسة ورئيسها والامتثال لاحكامها حتى في سنّ الشرائع ليس اصالةً بل تبعاً اعني من وجه مطابقتها لقواعد الدين او منافاتها لها. وقد حافظت الكنيسة على هذه الحقوق التي خوّلها اياها مؤسسها الالهي. وقاومت ما استطاعت كل من اراد نقضها يشهد التاريخ على ثباتها ووحدة تعليمها في هــذا الشأن. فما من احد ممن لهم المام بالتاريخ يجهل مثلاً كيف حرم القديس امبروسيوس الملك ثاودوسيوس الكبير ومنعهُ الدخول الى الكنيسة امام الشعب كله لان الملك كان قد حكم على سكان مدينة تسالونيكي بالقتل بلا تمييز بين مجرم وبريء وذلك لانهم كانوا قد عصوه وحطوا تماثيله. فاطاع الملك حكم الاسقف واقرّ فعلاً وهو في اوج العظمة بسلطة الكنيسة حتى على الملوك في امور الدين. وكذلك فعل الشهيد القديس بابيلاس بفيليب العربي قيصر رومة على ما رواه القديس يوحنا فم الذهب

فمن وجود السلطة الروحية التامة المستقلة في شخص البابا على كل المسيحيين دون استثناء احد منهم ولو ملكاً نستنتج وجوب الاستقلال الزمني لهُ ايضاً وهي القضية الثانية التي تقدّمها. وذلك لان الذي لهُ حقّ بان ينظر في الاحكام الصادرة عليه من اي شخص كان وفي اي مادة كانت ويزيفها ويبطلها اذا رآه مناسباً لا يمكن ان يكون

خاضعاً ولا في المدنيات للذي تصدر عنهُ تلك الاحكام . لان ابطال الحكم او القضاء لا يجوز الّا لمن لهُ الرئاسة على الحاكم او القاضي

والحال اذا اصدر ملك من الملوك المسيحيين حكماً على البابا وان في المدنيات يحق للبابا بما ان في يده ملء السلطة الروحية على كل ابناء الكنيسة ان ينظر في ذلك الحكم ليرى ان كان مطابقاً للاحكام الالهية طبيعيةً كانت ام وضعيَّةً ويبطله ان كان منافياً لها او مضراً بصالح الكنيسة وخير الانفس او واضعاً من شأن رأس الكنيسة الاعلى وهلمَّ جرًّا

فلا يستطيع اذًا البابا ان يكون خاضعاً حتى في المدنيات لملك من الملوك . فان استقلاله الزمني تابع لازم لاستقلال سلطانه الروحي . وقد ادرك الملك قسطنطين هذه الحقيقة من يوم تنصُّره فترك رومة واتخذ غيرها قاعدة له في ايطاليا ليطلق الحريَّة التامة للبابا ويرعى لهُ حرمة الرئاسة العامة على الكنيسة . والحق يقال ان المسيحي الذي فيه روح الديانة يفهم على البديهة ان من اللائق ان يكون رأس الكنيسة مستقلاً بذاته حتى في الامور المدنية لا يخضع لاحد . وذلك لان البابا ابو المسيحيين كافة أَفيجوز ان يخضع الاب لبنيه ؟ على البابا ان يرعى المسيحيين وملوكهم على اختلاف مللهم واحوالهم ويرشدهم الى ما فيه صلاحهم وينبههم ويعلمهم ويؤنبهم ويقضي فيما بينهم دون ان يتهمه احدٌ . أفيمكنهُ ذلك لو كان تحت حكم دولة من الدول ؟ أما تعترضه تلك الدولة في اعماله ؟ أيقبل رعايا الدول المعادية لدولته احكامه ؟ أما يظنون انها صادرة عن روح التعصب للمملكة التي ينتمي اليها ؟ يجب ان تكون الرئاسة في الكنيسة ثابتة لا تتغيَّر مع الايام وتقلبات الحوادث . أفتكون ثابتة لو كان ثباتها منوطاً بارادة الحكام المدنيين ؟ يجب ان يكون لامام الاحبار ونائب المسيح على الارض الأكرام اللائق بمقامه الرفيع سيما وان الشعب لا يحكم الا بالظواهر . أفيحظى بهذا الاكرام لو كان تحت أمر ملك من الملوك ؟ أفلا تحط كرامته لو سيق الى الحاكم كباقي الناس ؟ فليحكم المسيحي

فاذا ثبت ان استقلال البابا الزمني واجب فلا بدَّ من وسيلة فعَّالة تضمن لهُ ذلك الاستقلال . وإن هي سوى الحكم الزمني فهي الطريقة الوحيدة التي وجدوها حتى الآن كافلة للبابا حريته المدنية وبواسطة حريته المدنية حريته الروحية لسياسة الكنيسة . وفي

الواقع كلما فقد البابا لا اقول حكمه الزمني بل ظواهر الاستقلال المدني كان ذلك سبباً لشرور لا تحصى يكفينا الآن الاستشهاد بحوادث الشقاق الغربي الذي دام نحو نصف قرن وكان علة لشرور عديدة. فما كان سببه سوى اقامة الباباوات في فرنسا وان كانوا في ولاية خاضعة لحكمهم. وقد انتبه لهذا الامر ارباب السياسة حتى الذين اضطهدوا البابا وارادوا اذلاله مثل نابوليون الاول. واليك ما قاله هذا الرجل العظيم في اول امره اذ لم تشمله بعد خمرة انتصاراته الغريبة:

«ان البابا مقيم خارجاً عن باريس. ذاك حسن. ليس هو في مدريد ولا في ڤينا ولذلك نرضى بسلطته الروحية. وكذلك يقول الناس في ڤينا ومدريد. اتظنون ان النمساويين او الاسبانيين يقبلون احكام البابا لو كان في باريس؟ فيسرُّنا جدًّا ان يقيم البابا خارجاً عنا ولا يقيم عند اخصامنا. وان يقيم في رومة المدينة القدمى بعيداً عن ايدي سلاطين المانيا وملوك فرنسا واسبانيا لا يرجح الميزان بين الملوك الكاثوليك يميل قليلاً نحو القوي ويستوي للحال منتصباً اذا اراد القوي الظلمَ: «هذا صنع الاجيال ونعم الصنيع فانهُ خير ما يمكن استنباطه وانفع ما يمكن ايجاده لخير الانفس وحسن رعايتها» (١

ليت قائل هذا الكلام المسجدي لم ينسَهُ في آخر امره لكان كفى الكنيسة ونفسه شروراً عظيمةً. وعلى كل حال فان ذكاءه الفائق وبعد نظره في امور السياسة بيّنا له ان البابا يتعذر عليه القيام بواجباته ان لم يكن ملكاً مستقلاً

وليست ضرورة حكمه الزمني من اللزوم في درجة استقلاله الروحي واستقلاله المدني فان هذين الاستقلالين مُرْسَمة الله امّا اصالةً او تبعاً كما قلنا فلا يمكن نسخهما البتة. واما السلطة الزمنية فضرورتها ادبيّة من حيث انهُ لو امكن وجود واسطة اخرى للمحافظة على استقلال البابا حق المحافظة لكان في وسع الكنيسة ان تتخذها دون الحكم الزمني. ولكن العناية الالهية الساهرة على خير الكنيسة لم تعيّ. لها حتى الآن طريقة اخرى. فهي التي دبّرت الاحوال وتقلبات الايام رويداً رويداً منذ عهد قسطنطين حتى افضت الى انشاء مملكة مستقلّة يسوسها البابا وذلك في عهد الكارلونجيين

(١ طالع تيار (Thiers, Histoire du Consulat et de l'Empire–Du Concordat)

ومساعدتهم. ولذلك لم يزل الباباوات يطالبون بحقوق حكمهم الزمني لا حبًّا بالترفع كما ينسبه اليهم ظلمًا من كان قصير الرأي جاهلًا بالتاريخ وباصول الدين بل ضنًّا باستقلالهم الروحي لخير الانفس وحسن تدبير الكنيسة الكاثوليكية جمعاء.   ش. ١٠

مطبوعات شرقية جديدة

عقود الجوهر في تراجم من لهم خمسون تصنيفًا فمائة فاكثر

تأليف جميل بك العظم محاسب المعارف في بيروت (بالمطبعة الاهلية سنة ١٣٢٦ ص ٣٤٤)

يذكر القرّاء مقالةً مستجادة نشرها في المشرق (٢: ١٩٢) جناب الامير شكيب ارسلان في اتساع التأليف في الاسلام فبيّن ما كان لقدماء الكتبة المسلمين من طول الباع في الكتابة حتى انَّ بعضهم بلغت بهم الهمّة الى تصنيف مئين من المؤلفات بين قصيرة ومطوَّلة. وقد احبَّ احد افاضل الادباء في الثغر جناب الكاتب البارع جميل بك العظم محاسب المعارف أن يجمع في هذا الباب وباشر بتأليف كتاب مستقل ذكر فيه تراجم الذين عثر لهم على خمسين مؤلفًا فمائة فاكثر وقد برز القسم الاول من هذا الاثر الجليل وهو يحتوي اسماء خمسين كاتبًا ممَّن استحقُّوا بوفرة تآليفهم أن يُنظموا في هذا الكتاب مع تدوين جدول كتبهم فترى ما لهذا التأليف من الفوائد الجمّة لاسيما اذا تلته قريبًا ان شاء الله الاجزاء التابعة له التتمة لفوائده. ومع ما في هذا التأليف من الجدوى الطائلة كنّا وددنا لو اتقن المؤلف تنسيقه فجعله على اسلوب تاريخي مباشرًا بالاقدم الاقدم ومتنقلًا الى الاوسط فالاحدث وترى على خلاف ذلك اسماء المشاهير مختلطة دون ترتيب ظاهر فابتدأ بالامام الغزّالي ثم ذكر السيد مصطفى البكري من المحدثين ثم عاد الى ارسطو والحقهُ بجالينوس ثم التفت راجعًا الى ابقراط. وكان الاولى لو ذُكر كل كاتب على سياق الزمان. وترى كذلك انهُ كان الاجدر بالمؤلف ان يقتصر على كتبة العرب دون ذكر اليونان لانَّ ذكر الاجانب يؤدي به الى مجاهل يتحيَّر بها. ومما كان يزيد الكتاب فائدةً ان لا يكتفي المؤلف بسرد المصنفات التي وضعها كل كاتب بل يذكر ما يُعرف منها حتى يومنا وما نُشر بالطبع فانَّ مثل هذه الافادات تحمل الادباء

على طلب المزيد من التآليف ولحياء دفائنها. وعلى كل حال نثني على همّة المؤلف ونتمنّى لكتابهِ رواجاً بين العلماء شرقاً وغرباً ل. ش

Autour de la question sociale et scolaire en Syrie, par K. T. Khairallah. *Alexandrie*, 1908, pp. 68.

المسئلة الاجتماعية والمدرسية

قد طابق ظهور هذا الكتاب في الاسكندريّة مع التقلّبات التي حدثت مؤخراً في الدولة العثمانية . وغاية المؤلف ان يبيّن ما هي عليهِ سوريّة من الحاجة الى الاصلاحات في الهيئة الاجتماعية وفي المدارس. وقد اصاب المؤلف في بعض اقوالهِ لكنّهُ خلط الغثّ بالسمين والبخس بالثمين فرمى الكلام على عواهنهِ في امور شتى لم يحسن معرفتها وكانهُ اراد في عدّة اشياء ان يجعل سوريّة شبيهة باوربّة كأنَّ اوربّة بلغت اوج الكمال ولكل بلد كما لا يخفى احوالهُ وعاداتهُ التي لا تصلح لسواه فاذا تقلّدها غيره خُدع وضلَّ. ومن اكبر نواقص الكتاب انَّ صاحبهُ ضرب الصفح عن الدين في ذكر الاصلاحات التي يقترحها . وكفى بذلك خللاً اذ شيّد المهندس البناء ونسي الاساس ل. ش

شذرات

مجلة الكلمة كنّا نشرنا مقالتنا في المدارس والهيئة الاجتماعية لمّا بلغنا العدد ١٦ من مجلة الكلمة . فقرأنا منها صفحتين في تهذيب الاولاد في فرنسا (ص ٣٢٥—٣٢٧) وسررنا لما رأيناه من التفات سيادة الكاتب الى خطر المدارس الكفريّة وتحذير قرّائهِ من شرّها . فبعد ان ذكر تكاثر الجرائم منذ انشاء المدارس بلا دين قال:

« اذا كان الشعب الافرنسي وهو من اعظم شعوب الارض تقدماً في العلوم والمعارف يكاد معظمه ينغمس في الجرائم والرذائل ويتعرّى من حلية الادب والفضائل بسبب اجتهاد رؤسائه المدنيين في اكراهه على الكفر وقلة الدين فاذا عسى يصير بحالة شعبنا السوري الادبية وهو اقل علماً ومعرفة من الافرنسي بدرجات عديدة لو انتشرت فيما بين افراده تلك المبادئ السقيمة والتعاليم السيئة التي ينقلها اليهِ بعض كتّاب سوريّين عن الكتبة الافرنسيّين وغيرهم من الكتبة الاوربيين والاميركيين المشهورين بالكفر والعداء للدين . ومع ذلك فان بعض جرائدنا ومجلاتنا العربية يسمون هؤلاء الكتبة وامثالهم بالكتبة العصريين والافاضل المصلحين »

فنعم القول لولا الغلو الظاهر في نسبة الجرائم الى معظم الشعب الافرنسي تقريباً. ولكن ساءنا ما طالعناه قبل هذه الاسطر في الصفحة ٣٢٥ فقد ورد فيها عن اصحاب السطوة في فرنسا: « انهم عمدوا الى سياسة لا تقل استبدادًا بأبناء الشعب عن سياسة اغناطيوس لويلا واتباعه » ففي هـذا القول من التشنيع في حق قديس عظيم مجّد كنيسة الله غربًا وشرقًا وعمّت اعماله المبرورة المسكونة قاطبةً حتى شهد له بالفضل السامي علماء البروتستانت انفسهم ما لا يستطيع انكاره احد. فاين قرأ سيادة الكاتب ان اغناطيوس استبدَّ بابناء الشعب وهو الذي ضحّى مجد هذه الدنيا ليخدم ابناء الشعب؟ افيمكنهُ ان يذكر سطرًا واحدًا بل كلمة واحدة من ترجمة القديس او من كتاباته يُستشفّ منها ولو عن بعد ما يقذفهُ بهِ سيادته؟ وعندنا ان سيادة الكاتب نقل هذا القول جزافًا دون ان يتروّى فيهِ ولو درى لعلم انهُ من الاكاذيب الشائعة التي تتداولها « الكتبة المشهورون بالكفر والعداء للدين ». وبذلك نقض أساس بنيانه الذي اراد تشييده بالمدافعة عن الدين

امّا ما قالهُ عن أتباع اغناطيوس فلا نستاء منهُ ولا نتعجب. فليس التلميذ افضل من معلمه. ولكن يودنا لو طالع سيادته غير كتب الكفرة والمعادين للدين ويكفينا ان يقرأ كتب البروتستانت المحققين الثقات مثل الكتاب الحديث الذي عنوانه « بيلاطس » فقد فحص فيهِ صاحبه وهو الاستاذ نويمان (Neumann) من علماء البروتستانت عن كل التهم التي يقذف بها اعداء الكنيسة الرهبنة اليسوعية وبعد البحث المدقق ختم كتابهُ بهذه الآية الواردة في الانجيل عن لسان بيلاطوس مزكيًا للمسيح: « لم اجد فيهِ علّة ». وقد كان ايضاً بوسع سيادته بما انهُ في اميركا ان يستطلع اخبار تلك البلاد شمالًا وجنوبًا ليعلم كيف انتشر فيها التمدن الاوربي لكان رأى من اعمال اليسوعيين عجائب في تفانيهم لخير البرابرة والقبائل الهمجية. تشهد بها التماثيل التي اقامتها الحكومات لبعض افرادهم. ثم لو كان سيادته عارفًا باحوال لبنان وسوريّة من زهاء ٧٥ سنة فضلًا عن الاجيال الثلاثة السابقة لكان تحقق بعينه انهُ لا اصل البتة للتهمة التي نقلها. افيمكنهُ ان يذكر لنا متى استبدّ ابناء اغناطيوس بابناء الشعب في سوريّة ولبنان خاصةً؟ لعلّنا نطّلع على ما نجهلهُ. لاننا لا نعلم حتى الآن سوى ان ابناء اغناطيوس ضحّوا في سبيل ابناء الشعب السوري اموالهم وارواحهم ودماءهم. ما لم

يسرّ سيادته اجتهاد اليسوعيين في تعليم ابناء الشعب اصول الدين استبداداً . فان كان هذا استبدادهم فنعم الاستبداد فانهُ اقوى دعائم النجاح والترقي ولا شك في ان سيادته يشاركنا فيهِ ويكون من اشدّ انصاره وهو كاتب المقالة في شرور التهذيب الكفري . فلمَ يحمل اذاً سيادته على ابناء اغناطيوس وهم من اعوانه في نشر التعليم والآداب غ٠ا

أسئلة وأجوبة

س سأل ف . ط . احد ادباء البلدة ١ً ما هي اسماء السلاطين والملوك الذين يذكر التاريخ قديمًا وحديثًا انَّ مدّة حكمهم تجاوزت الخمسين سنة فصاعدًا مع تاريخ سنتي جلوسهم ووفاتهم — ٢ً بعد سقوط مملكة الافرنج الصليبيَّة هل بقي البطاركة اللاتينيون يشغلون في الكرسي الانطاكي واين يمكن الوقوف على اسماء الذين منهم تعاقبوا على هذا الكرسي خارجًا عن مدينة انطاكية حتى الزمان الحاضر — ٣ً ما معنى لفظة ذبتيخا التي تستعملها بعض الكنائس الشرقية في القداس وما هو اصل وضعها

اسماء السلاطين والملوك — بطاركة اللاتين في انطاكية — لفظة ذبتيخا

ج نجيب على (الاوَّل) ان سرد أسماء الملوك الذين تولّوا الامر خمسين سنة لا يتمُّ بالتدقيق الّا بعد البحث الطويل ومراجعة تواريخ كل الامم فالاولى ان نحيل السائل الى التآليف المطوَّلة لئلا يكون الجواب مخلًا . ونجيب على (الثاني) انَّ البطريركية اللاتينيَّة على انطاكية كان ابتداؤها في سنة ١٠٩٨ بعد فتح الصليبيين لانطاكية بجلوس برنردس الوالنسي على كرسيها . وخلفهُ البطاركة متسلسلين الى ان استولى ملوك مصر المسلمون على تلك العاصمة . ومن بعد فتوح المدينة صارت بطريركيَّة اللاتين على انطاكية شرفيَّةً واصحابها يقيمون غالبًا في رومية . امَّا اسماؤهم وسنو جلوسهم فقد ضبطها العلّامة ماس لاتري (Mas Latrie) في مجلّة الشرق اللاتيني في اعداد سنة ١٨٩٤ . نجيب على (الثالث) ان لفظة ذبتيخا يونانيَّة (Δίπτυχα) معناها المضاعف طيُّها ارادوا بها السجلّات المطويَّة التي كانوا يكتبون فيها اسماء الولاة والبطاركة والاساقفة ليحفظوها او يذكروها في الصلوات الكنسيَّة ل . ش